

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_191170

UNIVERSAL
LIBRARY

سلسلة دار المصنفين رقم ٣٥ *

امعان في اقتساب القرآن

تأليف

المعلم عبد الحميد الفراهي

صاحب تفسير ﴿نظام القرآن﴾

ومؤلف (اساليب القرآن) ، و (اسباب الزوال) ، و (تاريخ القرآن) ، و (اوصاف القرآن)
و (النسخ والمسخ) ، و (مرادفات القرآن) ، و (اصول التأويل) ، و (دلائل نظام القرآن) الخ .

طبع على نفقة جمعية

دار المصنفين

بمبادرة أعظم كره (باحمد)

المطبعة السلفية - ومكنتها

۱۶۵۳

امعان في تفسير القرآن

تأليف

المعلم عبد الحميد الفراهي

صاحب تفسير (نظام القرآن)

ورئيس لجنة المديرين لدار المصنفين بمدينة اعظم كره بالهند

— ۳۳۳۳۳ —

طبع على نفقة جمعية

دار المصنفين

المطبعة السلفية. ومكتبها

القاهرة

١٣٤٩

•
* حقوق الطبع محفوظة *

الكتاب

(١) سبحانه الذى أنطق كل شىء بأنه صنع يده ، وغذى رفقته .
سبح الشمس لكبريائه ومجده ، ويسجد له القمر بحبيبه وخده ، يتنهد له
البر بغوره ونجده ، ويحفد اليه البحر بجزره ومدته : كما قال تعالى فى كتابه
﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح
بمحمده ﴾ . ونصلى على محمد رسوله المختار وعبيده ، وعلى آله وصحبه المعتمدين
بجمله وعهده . والتابعين لهم على سواء السبيل وقصده ﴿ أما بعد فهذا
كتاب فى بيان أقسام القرآن ، وموجز من المقدمة التى جعلتها لذكر
الأمور الكلية التى أحتاج الى إيرادها فى كتاب (نظام القرآن وتأويل
الفرقان بالفرقان) لتغنى عن التكرار الذى لاطائل تحته : وقد جاء القسم فى
كتاب الله تعالى كثيراً واشتبه على الناس معناه وحكمته والبحث عنه فى
كل موضع لا يلىق بكتابنا الذى بنى على الإيجاز . فأردت أن أتكلم عليه
من جهة كلية فى جزء مختصر . ولم أطلع على كتاب من القدماء فى هذا
الباب غير كتاب التبيان للإمام ابن القيم أو ما ذكر فى التفسير الكبير
للعلامة الرازى ومن أمته رحمهم الله وسنورد منهما فى خلال فصول كتابنا
هذا ما يقتضيه سياق الكلام ، والله الهادى الى سبيل السلام

ذكر الشبهات النهرية على أقسام القرآن

(٢) لما كان المقصد الأعظم من هذا البحث إزالة الشبهات أردت أن أذكرها أولاً ليكون الناظر من قبل على بصيرة بمساق الكلام فيتضح له شكل نظامه وغرض سهامه . فاعلم أن الشبهة على أقسام القرآن من وجود :

(١) القسم نفسه لا يليق بجلالة ربنا ، فإن الذي يحلف على قوله يهين نفسه ويضعها موضع من لا معوّل على حديثه ، وقد جاء في القرآن ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ فجعل الحلف من الخلال المذمومة ، ونهى المسيح الحواريين عن الحلف مطلقاً فقال لهم « ليسكن قولكم نعم نعم أو لا لا ولا تحلفوا »

(ب) القسم في القرآن جاء على أمور مهمة كالعباد والتوحيد والرسالة ولا فائدة فيها للقسم إلا للمنكر بها فإنه يطلب الدليل والبرهان والقسم ليس في شيء منه ولا للمؤمن فإنه قد آمن بها

(ج) القسم يكون بالذي عظم وجلّ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من كان حالفاً فليحلف بالله أوليصة » فنهى عن القسم بغير الله فكيف يليق بجلالة ربنا أن يقسم بالخلق لا سيما بأشياء مثل التين والزيتون فهذه ثلاث شبهات . ونذكر أولاً ما أجاب به الرازي وغيره من

المتقدمين ، وذلك على ما فيه من الضعف لنحنوك عن التمسك بالعرى
الواهنة فإنه أكبر ضرراً في الدين وأبسط لألسنة المعاندين ومع ذلك ندعو
أن يجازيهم الله بما اجتهدوا في الذب عن بيضة الحق وذماره كما أدعوا أن
يجعلني من حزب الحق وأنصاره

طريق الامام الرازي

في الجواب عن هذه الشبهات

(٣) قد ذكر الامام الرازي الشبهة الثانية وأجاب عنها في تفسير
سورة والصفّ فقال « والجواب من وجوه الاول انه تعالى قرر التوحيد
وصحة البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل اليقينية فلما تقدم ذكر تلك
الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيداً لاسيما والقرآن انزل بلغة
العرب واثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب (فيما ذكر
من نزول القرآن بلغة العرب وكون اليمين طريقة مألوفة عندهم أيضاً جواب
للشبهة الاولى) . وحاصل هذا الوجه ان القسم انما هو مسبوق بالدلائل .
فالمعول عليها . واما ايراد القسم فهو للتأكيد المحض كما هو عادة العرب
(والظاهر ان هذا الجواب يناقضه القرآن فانك في أوائل الوحي ترى القسم
أكثر مما تراه بعد استيفاء الدلائل) . الوجه الثاني في الجواب انه تعالى لما
اقسم بهذه الاشياء على صحة قوله تعالى « ان الهكم لواحد » ذكر عقبيه
ما هو كالدليل اليقيني في كون الاله واحداً وهو قوله تعالى « رب السموات

والارض وما بينهما وربهم المشارق » وذلك لانه تعالى بين في قوله « لو كان
فيهما آلهة الا الله لفسدتا » أن انتظام السموات والارض يدل على ان الاله
واحد فها هنا لما قال « ان الهكم لواحد » اردفه بقوله « رب السموات
والارض وما بينهما ورب المشارق » كأنه قيل قد بينا ان النظر في انتظام هذا
العالم يدل على كون الإله واحدا فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم
بالتوحيد (وحاصل هذا الجواب ان القسم هاهنا مردف بقول فيه الحجة ،
فلاحتجاج بها . واما القسم فلمحض التنبيه وهذا الجواب يشبه الجواب
الاول وكلاهما ساكت عن بيان حكمة هذه الصور المتنوعة للقسم فأى
فائدة للعدول عن القسم بالله الى القسم بهذه الاشياء) . الوجه الثالث في
الجواب ان المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الاصنام في قولهم بانها
آلهة فكانه قيل هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة الى حيث يكفي
في ابطالها مثل هذه الحجة والله أعلم . هذا الجواب سخيف جدا كأنه بعد
ما اعترف في الوجهين الاولين بان القسم لاحجة فيه قال ان مذهب الخصم كان
جديرا بان يجاب عنه بما ليس من الحجة في شيء . ثم ذكر من حكمة القسم
في تفسير سورة الذرّيت ما يشبه بالجواب عن الشبهات فقال « قد ذكرنا
الحكمة في القسم وهي من المسائل الشريفة والمطالب العظيمة في سورة
والصّصفت ونعيدها ههنا وفيها وجود : الأول أن الكفار كانوا في بعض
الأوقات يعترفون بكون النبي غالباً في اقامة الدليل ، وكانوا ينسبونه الى
المجادلة والى أنه عارف في نفسه بفساد ما يقوله وانه يغلبنا بقوة الجدل
لا بصدق المقال كما أن بعض الناس اذا أقام عليه الخصم الدليل ولم يبق له

حجة يقول انه غلبنى بعلمه بطريق الجدل وعجزى عن ذلك وهو في نفسه يعلم أن الحق بيدي فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين فيقول ان الأمر كما أقول ولا أجادل بالباطل وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر فاذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال في الأول أن ذلك تقرير بقوة الجدل فلا يبقى الا السكوت أو التمسك بالايمان وترك اقامة البرهان ، وفي هذا الجواب خلط بين الغث والسمين ونقض لما قال في تفسير سورة والتَّصَفَّتْ فانه رحمه الله أجاب هناك في الوجه الثاني بأن القسم يتبعه الدليل وانما كان القسم لأجل التأكيد ، والأمر كذلك فان القرآن لا يسكت على القسم فلو قال ان الدليل المحقق ربما لا ينجع في الخصم اذا كان قليل المعرفة بالاستدلال وقليل الاعتماد على نظره أو متهماً للمتكلم بخلافة بيانه فيحسن في هذه الحالات شوب الحجة باليمين فلو قال هكذا لكان أقرب . الثاني : هو أن العرب كابت تحتز عن الايمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع ثم ان النبي ﷺ أكثر من الايمان بكل شريف ولم يزد ذلك إلا رفعة وثباتا وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذبا والا لأصابه شؤم الايمان ولناله المكروه في الأزمان وفي هذا الجواب كأنه أشار الى سبب كون اليمين طريقة مألوفة عند العرب كما مر ، وقد أصاب في ذلك لو لم يزد عليه ما قال من أن النبي ﷺ أكثر من الايمان بكل شريف كأنه بين سبب خوفهم وأراد أنهم اذا أقسموا بكل شريف خافوا سخطه ان كذبوا في يمينهم به ، وضعف هذا القول ظاهر فان أقسام القرآن (١) ربما يكون بما ليس فيه شرف

(٢) والقرآن يهدي الى أن لا يخاف إلا الله (٣) وأى شوم يخاف من التين والزيتون (٤) ثم النبي ﷺ كان يبلغ القرآن من الله فلقسم منه تعالى وهو لا يخاف أحداً . فلو اقتصر على الجزء الأول من جوابه وقال ان العرب كانت تحترز عن الايمان الكاذبة وتخاف مغبتها وتعتقد أن الرجل لا يحلف كذبا فاذا حلف أحداً أصغوا اليه كان أقرب الى ما يجب به عن الشبهة الاولى والثانية جوابا ضعيفاً . الثالث : أن الايمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان مثله قول القائل لمنعمه وحق نعمك الكثيرة اني لا أزال أشكرك فيذكر النعم وهي سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم كذلك هذه الأشياء كلها (أى التي أقسم بها في أول الدريّة) دليل على قدرة الله تعالى على الاعادة فان قيل فلم أخرجها مخرج الأيمان ؛ نقول لأن الانسان اذا شرع في أول كلامه بحلف يعلم الباطن أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغى اليه اكبر من أن يصغى اليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ، فبدأ بالحلف وأدرج الدليل في صورة اليمين . هذا الجواب يكفي لدفع الشبهة الثانية ولكن يلزم على القائل به أن يبين وجه الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه وهذا مع كونه ظاهراً في بعض المواضع كثيراً ما يحتاج الى امعان شديد ولعله لهذا السبب لم يعتمد عليه إلا في هذه سورة الدريّة وفي بعض آخر وأما في البواقي فله طريقان : الأول أنه ينكر وجود القسم اذا أمكنه الانكار فراراً عن شبهات واردة على القسم كما قال في تفسير سورة القيامة في ذكر لا التي تبتدىء بها السورة « الاحتمال الثاني أن لا هنا لنفي القسم

كأنه قال لا أقسم بذلك اليوم وتلك النفس وليكني أسألك غير مقسم
أنحسب انا لا نجمع عظامك اذا تفرقت بالموث فان كنت نحسب ذلك فاعلم
انا قادرين على أن نفعل ذلك . وهذا القول اختيار أبي مسلم وهو الأصح
هذا القول غير مختار عند العارف بكلام العرب فانه لو كان المراد كما فهم
لكان وجه القول نفي مجرد القسم لا ذكر الأشياء الخاصة كالنفس اللوامة
والخنس الجوارى الكنس وغيرها ، ثم هذا مخالف لأسلوب كلامهم
فانهم يستعملون كلمة لا قبل القسم منقطعة كما بينا في تفسير سورة القيمة
وهذا هو مختار الزمخشري والطريق الثانى : هو القول بأن القسم للتأكيد
والتنبيه على شرافة المقسم به قال فى تفسير سورة الذرير وقد عرفت أن
المقصود من القسم التنبيه على جلالة المقسم به . وعلى هذا الأصل قال فى
تفسير سورة التين « اعلم أن الاشكال هو أن التين والزيتون ليسا من
الامور الشريفة فكيفه يليق أن يقسم الله تعالى بهما فلاجل هذا السؤال
حصل فيه قولان » ثم ذكر فوائد هما ان كان المراد منهما هذه الاشجار ،
وذكر شرافتهما ان كان المراد منهما مسجدين أو بلدين . وقد علمت أن
التمسك بهذا الجواب مع كونه بادي الخلل لا يزيل الشبهة الثالثة فان هذه
الأشياء التى أقسم بها فى القرآن ومنها : العاديات ضبجا ، والجوارى
الكنس ، والليل ، والصبح ، والتين والزيتون ؛ ليست من الجلالة بمكان
يقسم بها خالقها وربها ان كان القسم لأجل شرافتها

طريق العلامة ابن القيم رحمه الله

في تأويل أقسام القرآن لدفع الشبهات

(١) لم يضع العلامة ابن القيم كتابه على شكل المجادلة فيذكر الشبهات ويحجب عنها لكنه بحث، عن حكمة القسم في القرآن وبين فيه ما يزيل الوم ويحسم جرائم الاعتراض وركن الى الجواب الذي استحسنته ولكنه مثل الرازي لم يتمسك به كل التمسك فذبذب بين أمرين وهو في كتابه ربما يشرع في تفسير السور التي فيها القسم ويخرج من قول الى قول . واني أورد عليك خلاصة جوابه ، وذلك على موضع الخلل فيه حسب شرطنا فاعلم أنه رحمه الله سلك مسلك الاستقراء فهدأ أولاً أن أقسام القرآن كلها بالله وصفاته وآياته فقال « وهو سبحانه يقسم بأمرور على أمور وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وأقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته » وبعد ذكر الامثلة قال « اذا عرف هذا فهو سبحانه يقسم على أصول الايمان التي يجب على الخلق معرفتها تارة يقسم على التوحيد وتارة يقسم على أن القرآن حق ، وتارة على أن الرسول حق ، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ، وتارة على حال الانسان » وما له عنده الى الجزاء فاقتصر القسم على ثلاثة أمور وهذه الثلاثة ما لها واحد وهو صفته تعالى كما ستعلم من قوله عن قريب فبعد هذا التمهيد لم يبق له كبير حاجة الى جواب القسم فان القسم بنفسه دلالة على القسم

عليه المعلوم المتعين وهو أحد الامور الثلاثة، فيقال في ذكر القسم الذي
تبتدئ به سورة والعاديات وسورة العصر « حذف جواب القسم لانه قد
علم بأنه يقسم على هذه الامور (أى التوحيد والنبوة والمعاد) وهى متلازمة
فتى ثبت أن الرسول حق ثبت القرآن والمعاد ومتى ثبت أن القرآن حق
ثبت صدق الرسول الذى جاء به ومتى ثبت أن الوعد حق والوعيد حق
ثبت صدق الرسول وصدق الكتاب الذى جاء به. والجواب يحذف تارة
ولا يراد ذكره بل يراد تعظيم المقسم وانه مما يحلف به » فهذه الأقسام
عنده دلالات على صفات الله كما قال فى ذكر القسم الذى تبتدئ به سورة
الروج « وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته » ثم قال
« والاحسن أن يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب لان القصد التنبيه
على المقسم به وانه من آيات الرب العظيمة » وكذلك قال فى ذكر القسم
الذى تبتدئ به سورة الطارق « والمقصود أنه سبحانه لأقسم بالسما ونجومها
المضيئة وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته » ثم قال فى ذكر
القسم الذى جاء فى وسط هذه السورة « فأقسم سبحانه بالسما ذات المطر
والارض ذات النبات وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على
ربوبيته » وهكذا قال فى ذكر القسم الذى فى أواخر سورة الانشقاق
« وهذه (أى الشفق والليل والقمر) وأمثالها آيات دالة على ربوبيته
مستلزمة للعلم بصفات كماله » ثم قال فى جواب هذا القسم « يجوز أن
يكون من القسم المحذوف جوابه » وهذا لما قلنا أنه لا يحتاج الى جواب
القسم فان المقسم عليه عنده معلوم متعين هذا ولا يخفى عليك الفرق بين

طريق الرازي رحمه الله الذي أشار الى أجوبة مختلفة ربما يناقض بعضها بعضاً وبين طريق ابن القيم رحمه الله الذي عمد الى نهج واحد واجتهد أن يعمل عليه في جميع الاقسام وهذا الطريق أحسن . والآن نذكر على ملاك الامر في جوابه فاعلم أنه رحمه الله اعتمد على أصليين : الاول انه سبحانه وتعالى انما قسم بنفسه وآياته وأما القسم بال مخلوقات فهو أيضاً من باب القسم بذاته فانها من آياته . وأراد بهذا الاصل ازالة الشبهة الثالثة وهي تعظيم المخلوق فوق مكانته ولكنها لم تزل فان القسم تعلق صريحاً بالمخلوقات وكونها من آياته ودلائل صفاته لا يخرجها عن كونها المقسم بها . وقوله « والجواب يحذف تارة ولا يراد ذكره بل يراد تعظيم المقسم به وانه مما يحلف به » تصرّح منه بأنه سبحانه أقسم بغير ذاته المقدسة وأراد تعظيم بعض مخلوقاته فغاية الامر أنه تعالى لم يقسم بها الا من جهة شريفة ولا بأس بأن يجعل الله تعالى لبعض مخلوقاته شرفاً وكرامة لكن الشبهة ليست في محض شرافة بعض الاشياء قرباً صغير كبير ورب ضئيل نبيل لاختلاف الاعتبارات بل الشبهة في وضعها موضع ما يقسم به الرب تعالى شأنه علواً كبيراً . والاصل الثاني الذي اعتمد عليه هو أن الاقسام كلها دلالات على المقسم عليه ، وأراد بهذا الاصل ازالة الشبهة الثانية كما فعل الرازي رحمه الله حين ذكره في وجوه آخر فلم يعتمد عليه وأما ابن القيم رحمه الله فاعتمد على هذا الاصل كل الاعتماد وفسر أكثر آيات القسم على طريق يظهر به دلالة المقسم به على المقسم عليه واذا أشكل عليه الربط جعل المقسم عليه محذوفاً وجعل القسم دالاً على صفات الله وغيرها

مما ذكرنا آنفاً . ومع هذا الوهن في جوابه والتصريح أحياناً بأن القسم لتعظيم المقسم به لقد أجاد وأطاب أو قد كاد في غير موضع من كتابه

طريق هذا الكتاب

في الجواب على سبيل الاجمال

(ن) لا يخفى عليك مما سبق من أقوال العلماء رحمهم الله أن أحسبهم قولاً من يقول ان هذه الاقسام دلالات ولكن الغمة التي لم تنجل عنهم والمضيق الذي لم يخرجوا منه هو ظنهم بكون القسم مشتملاً على تعظيم المقسم به لا محالة وذلك هو الظن الباطل الذي صار حجاباً على فهم أقسام القرآن ومنشأً للشبهات . فنبطله أولاً حتى يتبين أن أصل القسم ليس في شيء من التعظيم انما هو يفهم من بعض أقسامه ثم نبين أن أقسام القرآن بالمخلوقات ليست الا آيات دالة وانها نوع من القسم مبين للاقسام التعظيمية وليس من القسم بصفات الله كما ذهب اليه ابن القيم رحمه الله . ثم نرجع الى الفرق بين مواقع القسم المحمود وغير المحمود حتى يتبين أن النهي المطلق غير صحيح . فهذه ثلاثة مقاصد يتوجه اليها الكلام في كتابنا هذا واذ هي تقتضي بعض التفصيل والبسط في الكلام دعينا الى أن نبحث عن تاريخ القسم وحاجة الناس اليه قديماً وحديثاً وطرقه المتنوعة ، ونبين معاني كلمات القسم ومفهومه الأصلي ومفاهيمه المتشعبة الثلاثة من الاكرام والتقديس والاستدلال المجرد عن التعظيم . ونورد من نفس

القرآن دلائل واضحة على تأويل أقسامه وندل على أسباب خفاء هذا التأويل ليتضح عذر من قبلنا من كبار العلماء رحمهم الله . ونشير الى بعض وجوه البلاغة في أقسام القرآن . ثم نذكر وجوه النهي والاباحة والاستحسان في القسم . ونكشف عن تأويل قول المسيح عليه السلام حين نهى تلاميذه عن الحلف ونلغ الماعماً الى بعض بلاغة القرآن في تميزه بين كلمات القسم حسب مواقعه لتعلم ما لا يحسن منه . ذلك وقد ذكرنا فيما قدمنا جل مطالب هذا الكتاب اجمالاً ، فالآن نشرع في التفصيل ، والله الموفق ونعم الوكيل

تاريخ القسم ومما به الناس اليه

وطرقه المختلفة والدلالة على حقيقة معناه في أول الأمر

(٦) ان الانسان ربما يحتاج الى تأكيد خبر أو وعد منه حين يريد أن يعتمد عليه المخاطب وتطمئن به نفسه لا سيما في الأمور العظيمة كالاماهدة بين قوم وقوم أو بين ملك ورعيته أو بين أفراد الناس ليكونوا على ثقة بعضهم من بعض فيعملوا الموافق من المخالف والولى من العدو . وهذه الحاجة التمدنية دعتهم الى طرق وكلمات خاصة يعبرون بها عن هذا التأكيد فكان ذلك أصل قسمهم . فربما عبروا عنه بأخذ اليمين كما علمنا من أحوال الروم والعرب والعبرانيين . فاذا أخذ بعضهم يمين بعض عند المعاهدة أفصحوا بجزمهم وتأكيده كأنهم قالوا اننا قد وصلنا أمرنا ورهنا

به أيماننا . ولذلك سموا القسم يمينا وربما صرحوا بهذا المعنى كما قال جساس :
سأؤدى حق حمارى ويدي مزمى فعالى

ومن هنا تضمن القسم معنى الكفالة والضمانة . وهذا معلوم
ومعروف وبقاى فى أخذ اليمين للبيع والشراء ونراه فى
أمم آخر كالروم والهند ونرى العبرانيين أيضاً أنهم عبوا عن القسم باليمين
جاء فى الزبور ص ١٤٤ عدد ٨ « الذين أقواهم تنطق سوءاً ويمينهم يمين
كذب » فى العبرانية « أشرفهم دبر سوء ويمينهم يمين سوء » والعجب
من المترجمين الانكليزيين كيف ذهب عليهم هذا المعنى فترجوه بقول
معناه « اليد اليمنى منهم يد معنى الكذب » فلم يفهموا من كلمة اليمين القسم
بل اليد اليمنى وهذا من أخفش العثرات ويخبر عن قلة التفاتهم الى العبرانية .
والعجب كل العجب أنهم فى هذا الزمان أصلحوا الترجمة المستعذرة وغيروها
كثيراً ومع ذلك تركوا هذا الخطأ الفاحش على حاله . ذلك وجاء ذكر العقد
بصفحة الكف فى أمثال سليمان فى التحذير عن الضمانة ص ٧ عدد ١ « يا بنى
ان ضمنت صاحبك فصصفت كفك لغير » فتشابهت هاتان الامتان
فى أمر العقد ولذلك صارت كلمة اليمين اسماً للقسم بين العبرانيين كما هى
عندنا وربما غمسون أيمانهم فى اناء ماء إذا كانوا كثيرين فكأنهم أخذ
بعضهم يد بعض وأجمعوا أمرهم بما مسهم شئ واحد ، والماء أبلغ فى الس
واللصوق ولذلك قالوا بل بالشئ يدى أى لصق به . قال طرفة :

إذا ابتدر القوم السلاح وجدتنى منيعاً إذا بليت بقاءم يدي
وربما أخذوا عطراً فاقتسموه بينهم ومسحوا به أيديهم فراحوا وعبقه

بهم فهو أبقي من الماء وأشهر وأعرف ولذلك سموه عرفاً ونشراً ومن أمثلة هذا الطريق لمعاهدتهم ما نرى في قصة عطر منشم ؛ وهى أن قوما تحالفوا على أن يقاتلوا عدوهم وجعلوا آية الحلف تعاطى عطر باعوه من عطاره تسمى منشم ، وقصة هذا الحلف مشهورة حتى جرى به المثل ، قال زهير :

تداركتما عبساً وذميان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وكذلك نرى غمس الأيدي فى العطر فى قصة حلف المطيبين التى نذكرها فى الفصل العاشر

وربما ذبحوا بهيمة ورشوا دمها على أجسام الفريقين من الحلفاء علامة لموالاتهم الى حد القرابة ، أو لثباتهم على الحلف حتى يسيلا مهجهم . جاء فى سفر الخروج ص ٢٤ عدد ٥ - ٨ : « وأرسل فتيان بنى إسرائيل فاصعدوا محرقات وذبحوا ذبائح سلامة للرب من الثيران فآخذ موسى نصف الدم ووضع فى الطسوس ونصف الدم رشه على المذبح . وأخذ كتاب العهد وقرأ فى مسامع الشعب فقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له ؛ وأخذ موسى الدم ورش على الشعب وقال : هوذا دم العهد الذى قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال » فترى فى هذا القسم أنهم عاهدوا الرب برش الدم على أنفسهم وعلى المذبح نيابة عن الرب فصاروا حلفاء للرب . وهذا كثير ، جاء فى سفر زكريا ص ٩ عدد ١١ « فإنى بدم عهدك قد أطلقت اسراك »

وربما وصل بعضهم حبلة بحبل الآخر فصار من حلفائه حتى صار الحبل اسماً لعقد الذمة والجوار كما جاء فى القرآن « بحبل من الله وحبل من الناس » وقال امرؤ القيس :

انى بحبلك واصل حبلى وبريش نيلك رائش نبلى
وذكر الحطيئة أصل ذلك **وقال** :

قوم بيت قري العين جارهم اذا لوى بقوى أطناهم طنبا
فهذه طرق تأكيد عقودهم بين فريقين ومن الفريقين

ثم ربما حرّموا على أنفسهم بعض المشتيات حتى يفعلوا بعض
ما أوجبوا على أنفسهم وسموه نذرا كما نذر المهلهل أخو كليب أن لا
يشرب الخمر ولا يمس الطيب ولا يرجل شعره الى أن يأخذ بثأر أخيه ،
وقصته مشهورة وكذلك فعل امرؤ القيس وقال بعدما حل نذره :

حلت لى الخمر وكنت امرءاً عن شربها فى شغل شاغل
ثم توسع معناه وصار النذر التزام شىء عن طريق القسم كما قال ،
عمرو بن معدى كرب :

هم يندرون دىء وانذر ان لقيت بأن أشدا

ولذلك سمو النذر يمينا كما قال قبيصة بعد ذكر إيفاء النذر :

فأصبحت قد حلت بمينى وأدركت بنو ثعل تبنى وراجعنى شعرى
فى أبيات ذكرت فى الحماسة أى بعد ادراك تبنى حل نذرى أى ما
حرمته على بالنذر. ويشبه النذر دعوتهم على أنفسهم أو الزامهم إياها سوء
ان كانوا كذابين فى خبر أو وعد . كما قال معدان بن جواس الكندى :

ان كان ما بلغت عنى فلا منى صديقى وشلت من يدى الأنامل
وكفنت وحدى منذراً فى روائه وصادف حوطاً من أعادى قاتل
ومثله ما قال الأشتى النخعى :

بقيت وفري وانحرفن عن العلي ولقيت أضيافي بوجه عبوس
 ان لم أشن على ابن حرب غارة لم تحل يوماً من نهاب نفوس
 ومن هذا الدعاء بالمكروه لمحّة في الأقسام الدينية فان فيها خوف
 سخط الله ولعنته ان كذب الحالف بعد اشهاد الله على قوله
 وربما كفوا عن شيء من غير شرط وسموه ألية كما جاء في القرآن
 « للذين يولون من نسائهم تربص أربعة أشهر » ثم توسع استعمالها فصار
 قولهم آليت مرادف أقسمت . قال امرؤ القيس :
 « وآلت حلفة لم تحلل »

وقال طرفة :

فآليت لا ينفك كشحي بطانة لعضب رقيق الشفرتين مهند
 وقالت غنية أم حاتم الطائي :
 لعمري لقدعاً عظمى الجوع عضه فآليت ألا يمنع الدهر جاعلاً
 وهذا كثير في كلامهم ، يقولون آليت مرادفاً لأقسمت
 وربما استعملوا لام التأكيد وقالوا لأفعلن أو مثله كقوله تعالى
 « وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » أو
 كقوله تعالى : « ولينصرن الله من ينصره » أو كقول لبيد :

ولقد علمت لتأتين منيتي ان المنايا لا تطيش سهامها
 قال سيديويه رحمه الله « كأنه قال : والله لتأتين » وانما قال هذا على
 طريق التمثيل فانه رحمه الله أراد أن ههنا يميناً كما قال في ذكر لام القسم
 « ومثل ذلك لمن تبعك منهم لا ملأنا انما دخلت اللام على نية اليمين ، والله

أعلم « فلم يرد أن ههنا قسمًا بشيء بل المراد أن محوذاً قوله تعالى « لا ملأن »
 يمين وذلك لأن القسم ليس إلا التأكيد ولا تحتاج إلى تقدير المقسم به في
 كل موضع . وعلى هذا الأصل كل ما ترى في القرآن من لام اليمين وإذا
 جاءت قبلها كلمة تدل على اليقين والجزم كانت مشابهة بكلمة القسم كما
 رأيت في بيت لبيد الذي مر آنفاً ومثله في قوله تعالى « ثم بدا لهم من بعد
 ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » ومثله في قوله تعالى « قال فالحق
 والحق أقول لا ملأن جهم » فليس لك أن تقدر مقسماً به في هذه الأمثلة
 التي ذكرناها ولا يليق بها كما يظهر من سياق الكلام فكل ما ذكرنا من
 طريق اليمين والحلف وتعبيراته يدل على أن المقسم به ليس من لوازم
 القسم حتى تقدره كلما لم يذكر ، إنما أرادوا بالقسم تأكيداً محضاً للقول أو
 اظهار عزم وصريمة الزموا به على أنفسهم فعلاً أو ترك فعل

بيانه أن القسم لا يلزم المقسم به

بإيضاح معاني كلمات كثر استعمالها للقسم

(٧) ليس القسم بالله أو بشعائره من المعاني البسيطة حتى يوضع له
 اللفظ أولاً فيظن أن المقسم به إذا لم يذكر كان المراد منه القسم بالله تعالى
 إنما القسم التعظيمي نشأ من تركيب دواعي المعاشرة وعقائد الدين وبأتيك
 بيانه في الفصل العاشر ، وأما في هذا الفصل فنوضح معاني كلمات كثر
 استعمالها للقسم لتعرف أنها في أصلها لم توضع للقسم بالله أو بشعائره أو

بشيء آخر ، وهذه الكلمات هي اليمين والنذر والالية والقسم والحلف .
 أما اليمين فقد علمت وجه استعمالها وعمومها للقسم وما فيها من معنى
 الرهن والكفالة والضمانة فلا نعيده . وأما النذر فهو الابعاد والتحذير
 ومنه ابعاد الشيء عنك وجعله لله فصار بمعنى التحريم وبهذا المعنى يستعمل
 في العبرانية ومنه تحريم المشتبهات ثم توسع لالزام الشيء على النفس على
 وجه القسم كما مر . وأما الالية فعناها الاقصار عن الامر فيقال الآلى
 للمقصر العاجز عن الشيء ثم جاء لترك الشيء ومنه الايلاء من النساء على
 وجه القسم ، ثم توسع في معنى الزام الشيء سواء كان للترك أو الفعل
 ولكنه أكثر في الزام ما فيه شوب من المضرة فشابه النذر كما قال ابن
 زبابة التيمي :

آليت لا أدفن قتلاكم فدخلوا المرء وسرباله

ثم توسع وسار مرادفا للقسم كما مر في الفصل السابق . وأما القسم
 فهو في أصله للقطع ومنه قسمت الشيء وقسمته . والقطع يستعمل لثني
 الريب والشبهة ولذلك شواهد كالصرية والجزم والقول الفصل والابانة
 والصدع والقطع ، فهذا هو الاصل ثم اختص القسم من بين هذه الألفاظ
 بشدة الفصل بالقول واستعماله من باب الأفعال لخاصية المبالغة كقولهم
 « أسفر الصبح » ولا يلزمه أن يكون له مقسم به سواء كان على خبر أو
 عقد كما قال طرفة في معلقته : « أقسم ربهما لتكتنفن » وهذا كثير في كلام
 العرب . قالت جنوب في مراثيتها المشهورة :

فاقسمت يا عمرو لو نبهاك إذا نبها منك امرا عسالا

وقالت ربيعة السلمية :

فاقسمت لأنفك أحدر عبيرة بجودها العينان منى لتسجيا
وقالت خرنق أخت طرفة :

ألا أقسمت آسى بمد بشر على حي يموت ولا صديق

وجاء في القرآن « أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » ومنه قوله تعالى « وقاسمهما نى لكما لمن الناصحين فدلّاها بغرور » فان قيل ان المقسم به مقدر وهو الله تعالى قلنا ان أردت الاحتمال فلا تنكره انما قولنا أنه غير لازم ، فاقد رأينا أن القسم يكون بالله تعالى وبغيره ، وربما يكون مجرداً عن المقسم به وحينئذ لا يراد به الا التأكيد والجزم المحض . وأما الحلف فعناه القطع والحدة فيشابه كلمة القسم يقال : سنان حليف أى قاطع ولسان حليف أى حديد ذلق وعند الازهرى هذا مأخوذة من الحلف وهو نبات أطرافه محددة فقولهم حلف على أمره كقولهم قطع به وهذا هو الاصل ثم اختص مثل القسم بشدة الفصل والجزم فى القول ، ولذلك لا يلزمه المقسم به ، ألا ترى أنهم اذا عقدوا الموالاة بينهم باى طريق كانت سموا حلفاء وقد علمت طرقه المختلفة التى لم يحلفوا فيها بشىء . فتبين مما مر بك فى هذا الفصل والذى قبله أن القسم لا يلزمه المقسم به فضلاً عن تعظيمه وتلك هى كلمات قد كثر استعمالها للقسم بحيث أنه لا يلتفت الى أصول معانيها ، ولذلك قدمنا ذكرها . ثم للقسم كلمات اخر لم يذهل عن معانيها الاصلية ، فاذا نظرنا فيها وجدناها أظهر دلالة على أنها ليست فى شىء من تعظيم المقسم به ، ونذكر هذه الكلمات فى الفصل الآتى

ببارة أصل معنى القسم إذا طاله فيه قسم به

(٨) بعدما علمت معنى القسم المجرد عن المقسم به لا يبعد عنك فهم معناه إذا أقسم فيه بشيء فأنما هو ضم المقسم به مع المقسم كالشاهد على قوله، ولذلك كثر استعمال الواو قبله وكذلك الباء . وأما التاء فأنما هي مقلوبة من الواو كما ترى في تقوى وتجاه . فهذه الحروف للمعية ولضم الشيء بالشيء . ويؤيد هذا التأويل ما علمت من تاريخ القسم وطرقه فإنهم لم يقسموا الا على رءوس الاشهاد فكانوا شهداء على أيمنهم لتأكيدها . فان الرجل يحتجب أن يجعل نفسه كاذباً في عيون الناس . ويشهد على هذا المراد ما جاء في القرآن في ذكر ميثاق النبيين حيث قال عز من قائل « واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » أى قد أوثقنا هذا العهد بمشهدى ومشهدكم فلا يسوغ الانكار بعد ذلك الا بالفسق . وأصل هذا التأكيده أن المرء اذا قال اشهد به فقد صرح بأنه يقول بعلمه ومشهده لا بسماعه فلا يمكن له العذر ان كذب . ولذلك قال إخوة يوسف عليه السلام « وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين » واستعمال هذا الوجه في القسم يرى في قوله تعالى « لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزل بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً » . ثم في الشهادة أكبر وجوه التأكيده من جهة أخرى وهى أن الرجل اذا

قال أشهد أن الأمر كذا فكأنه قال أنا أقول هذا. كمن يقوم شاهداً على أمر، والكذب في الشهادة أكبر أثماً وأشد ذمماً. ولذلك ورد النهي عنه خاصة في الشرائع كما جاء في الأحكام العشرة من التوراة ويشبهه ما ذكر القرآن في مدح الأبرار «والذين لا يشهدون الزور» على أظهر تأويله ثم ترى صريح قولهم في أقسامهم «أنا أشهد» و«الله يشهد» و«الله يعلم» وهذا في أكثر اللغات. فإنا نرى الأُم في المشرق والمغرب مع اختلاف كثير في عاداتهم لا يختلفون في أنهم اذا قالوا الله شهيد على ذلك أو ما يشبهه أرادوا به القسم. وقال سيبويه رحمه الله في ذكر لام اليمين «واعلم أن من الأفعال أشياء فيها معنى اليمين يجرى الفعل بعدها مجراه بعد قولك «اقسم لأفعلن وأشهد لأفعلن» فصرح بأن أشهد معناه اليمين وان قولك اقسم كقولك أشهد. ويفصل هذه القضية ما جاء في القرآن من التصريح بكونه الشهادة والاشهاد يميناً حيث قال تعالى : «اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون. اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله» فسمى الله الشهادة منهم ايمانهم. وكذلك جاء التصريح بكون الشهادة بالله يميناً حيث قال تعالى «ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين» وحيث قال تعالى «ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام» فتبين مما ذكرنا أن القسم بالشئ أصله الاشهاد به وتأنيك دلائل أخر على ما قلنا في الفصل العاشر. فأما معنى تعظيم المقسم به فذلك مما انضم به في بعض الأحوال فهو من عوارض القسم وسيأتيك ذكره

وبعد ما علمت حقيقة القسم وأصل مفهومه نذكر لك المفاهيم التي هي فروع على الأصل ، وهي الأكرام ، والتقديس والاستدلال ، ونذكرها بالترتيب لتفهم وجوها وتميز بين معانيها حتى يسهل لك النظر في أقسام القرآن فتعرفها على وجهها وتكون على بصيرة في تأويلها

القسم على وجه الأكرام

للمقسم به ، والمتكلم ، والمخاطب

(٩) لما كان الصدق من أحب سجايا العرب لاسيما اذا عاهدوا على أمر وأعطوا له أيمانهم واشهدوا عليه ، فاذا صاروا حلفاء أو عقدوا عقد الجوار أو نذروا بأمر أو فؤوا ذمتهم وعَدُّوا الكذب فيها بعد القسم عاراً عظيماً وذلةً كَبِيزَةً لَأَنفَتَهُم وللحمية التي جبلوا عليها ، وكان في رهن أيديهم للعقود عندهم آية على أنهم يخاطرون لها أنفسهم ، فتضمن القسم مخاطرة النفس كما مر في الفصل السادس ، ولذلك كثر قسمهم بقولهم لعمرى أى أنا أخطر على هذا القول حياتى ، وربما بينوا هذا المراد كما قالت ريطة بنت العباس السامى :

لعمرى وما عمرى على بهين لنعم الفتى أردتيم آل خثعما
وقال النابغة الذبياني :

لعمرى وما عمرى على بهين لقد نطقت بطلا على الآقارع

وهذا كثير . ومن هذه الجهة انضم مفهوم الاكرام بالمقسم به فان المتكلم لا يدل على تأكيد قوله بهذا الطريق الا اذا أقسم بما يكرمه ويضن به فهذا هو أصل هذا النوع من القسم ، ثم تجاوزوه الى قولهم « لعمرك » أو ما يشبهه لما فيه من اكرام المخاطب كأن القائل أراد اني لا اقسم بعمرى بل بعمرك الذى هو أعز وأكرم على . وهذا هو الاصل ثم ربما لا يراد به الا تأكيد القول مع اكرام المخاطب ، ولما كان هذا أحسن فى التحاور كثر قولهم فى القسم : لعمرك ولعمر أهلك أو وجدك وبعزتك ، وأمثالها . وهذه الكلمات التى ذكرنا كثر استعمالها للقسم فلا حاجة الى نقل السند لها . ولكن يهمنى فى هذا القسم النظر الى أمور : الاول أن المقسم به فى هذه الاقسام ، وان كان عند المتكلم كريماً ومضنوناً به ، لكنه لا يكون مما يعبده ويقدسه كما سترى فى أقسام دينية نذكرها فى الفصل التالى . الثانى : أنه اذا أضيف المقسم به الى المخاطب دل على اكرامه كقوله تعالى « لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون » فاکرم الله نبيه بهذا الخطاب ومنه قوله تعالى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك » واذا أضيف الى المتكلم دل على عزته ومنعته كأنه قال : ان حياتى وعزى منيع لا يرام . ومن هذه الجهة لا ينبغى هذا القسم لعباد الله الخاشعين المتواضعين ولعل المسيح أشار الى هذا الامر حيث قال عليه السلام فيما نهى عن الحلف مطلقاً « لا تحلف برأسك لانك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء » . الثالث : انه لما كان من بعض وجوه القسم الدعاء بالسوء على الخائن كما مر فى الفصل السادس ربما انضم بهذا النوع ذلك المفهوم كأن

الحالف قال : ان كنت كاذبا ايده عمرى واهينت عزتى . ولا يخفى عليك مما ذكرنا أن هذا النوع من القسم لا يكون الا باضافة المقسم به اما الى المتكلم أو الى المخاطب . ولا يكون الا بالفاظه الخاصة التى ذكرناها . ولا يكون الا بامور عرف عزتها على المتكلم . فتبين أن إقسام القرآن بالذاريات والعاديات والخنس الجوار الكنس وأمثالها لا يكون من هذا النوع . واعلم أن هذه الاقسام ليست من جهد ايمانهم ، وعلى الاكثر تستعمل لمحض التأكيد بمعنى أقسمت ولذلك ربما قالوا لعمر الله فلا يريدون بها تمام معناها الاصلى الا اذا بينوه كما مر فى قول ربيعة السلمية والنابعة . ثم ان لهم أيمانا غليظة غير ذلك ويأتيك ذكرها فى الفصل الآتى

القسم على وجه التقريرىس للقسم به

(١٠) قد ذكرنا فى الفصل السادس دواعى توثيق أقوالهم فربما دعهم تلك الدواعى الى مبالغة الاستثياق والمغالاة فيه فكانوا يجتمعون للمعاهدة بمشهد معابدهم وبذلك خلطوا بالقسم جهة دينية وأرادوا به جعل الرب شاهداً على قولهم فان كذبوا فيما أقسموا عليه أسخطوه ، ولما كانت دائرة حكومتهم ضيقة ، ولم تفرق الامم المتجاورة حدود فطرية كالجبال الشاخنة والبحور المتلاطمة لم يمنع الجيران عن الاقتتال غير المعاهدة فصارت هى أحسن معاقلمهم وربما اتفقت أقوام لم تجمعهم أوامر القرابة على خلاف عدو فعاهدوا على التعاون فأيما كان من سلم أو حرب اذا عظم أمرها فزعوا

الى العهد ، ولذلك ترى ابراهيم عليه السلام لما هاجر قومه وسكن في بلاد العرب ورآه أبو ملك ذا باس مومنة هابه واستعظمه فعاهد به على رسم خاص لكيلا تكون بينهما حرب وصارا حليفين بهذه المعاهدة . والتاريخ شاهد بعظم مكانة المعاهدة في المدن حتى ترى الآن اعتصام الامم العظيمة بها فاعظم بمكانتها في أمم قديمة بنيت على الانفة والقهر والتطاول، بل الناس اليوم كما كانوا بل هم أسوأ لما جمعوا القهر والاستطالة بالخدع والكذب وصاروا قليلي الاعتماد على العهود ، ومع ذلك يتشبثون بها ويقسمون عند القضاة والولاة بالله تعالى وبشعائره ، فاجدر بأقوام قديمة أغلب خلالها الصدق أن يعتمدوا على العهد ويجعلوه بناء لتعايشهم ويشيدوه بما ليس فوقه شيء فلذلك تراهم يجتمعون عند أنصابهم وهياكلهم لتوثيق عهودهم بأشهاد آلهتهم على مواعيقهم . والعرب في زمان جاهليتها كانت كاحدى هذه الامم بل هي أشدهم بأساً وألدُّهم خصاماً ، كما أنها أبرهم ميثاقاً وأوفاهم ذمماً . وكانت الكعبة أعظم معاهدهم وحرمتها أكبر وازع لهم عن الحرب فتطفأ ناراها في شهور الحج ، ويأتون الى الكعبة من كل فج محرمين راهبين مختلطين في غاية الامن كالخرفان بعد أن كانوا اسوداً ضارية فيلقى العدو العدو من غير خوف حتى أنهم سموا مكة صلاحاً وأم الرحم ، فاذا حاولوا توثيق عهد جاءوا الى هذا المعبد ليقسموا بالله العظيم على مواعيقهم . ومن شركهم ربما أقسموا عند أنصابهم التي ذبحوا عليها لشفعائهم عند الله الاكبر ، وكانوا يقسمون : اما باهراق دم القربان ، أو بمسح الكعبة كما ستعلم مما ذكروا في أشعارهم ، أو بغمسهم أيديهم في عطر ومسح الكعبة

بها كما ترى في حلف المطيبين الذي كان قبيل البعثة حين أرادت بنو عبد مناف أن يجمعوا أمرهم فوضعوا جفنة طيباً لأحلافهم عند الكعبة ، فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة فسموا المطيبين وكان النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه منهم . أو بمجرد شهودهم عند البيت وعقدهم أيانهم لديه فهذا أصل قسمهم الديني ، ثم توسعوا فاكتفوا بمجرد ذكر الكعبة ومشاعر الحج كما ستري التصريح به في بعض هذه الامثلة التي نذكرها . قال زهير بن أبي سلمى :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجُرم وقال أيضاً :

هـ فتجمع أيمن منا ومنكم
وقال أعشي قيس :

فأني وثوبى راهب الحج والتي
وقال أيضاً :

حلفت له بالرقصات الى منى
وقال الحارث بن عباد :

كلا ورب الراقصات الى منى
وقال النابغة الذبياني :

فلا لعمر الذي مسحت كعبته
و ما هريق على الانصاب من جسد
والمومن العائذات الطير تمسحها
ركبان مكة بين الغيل والسعد

ما قلت من سيء مما أتيت به إذا فلا رفعت سوطى الى يدي
إذا فعاقبنى ربي بمواقبة قرت بها عين من يأتيك بالفند
وقال شأس أخو علقمة الفحل :

حلفت بما ضم الحجيح الى منى وما شج من نحر الهدى المقلد
وقالت غنية الاعرابية تصف ابنها :

احلف بالمرورة يوماً والصفاء انك خير من تفاريق العصا
وأما حلفهم بالانصاب فنه قول المهلهل :

كلا وأنصاب لنا عادية معبودة قد قطعت تقطيعا
وقول طرفة :

فأقسمت عند النصب أنى لهالك بملتفة ليست بغبط ولا خفض
وقول المتلمس :

اطردنى حذر الهجاء ولا والله والانصاب بلا تثل
وقال رشيد بن رميص الغزى :

حلفت بمأثرات حول عوض وانصاب تركن لدى السعير
أى حلفت بدماء جاريات . والقسم بالانصاب قليل جداً فكان جل
أقسامهم المؤكدة بالكعبة ومشاعر الحج . فان العرب مع اختلاف
دياناتهم فى الجاهلية لم يختلفوا فى تعظيم هذا البيت العتيق وعلموا أنه أول
بيت الله الذى وضع للناس حتى أنك ترى النصارى منهم كانوا يقسمون به
قال عدى بن زيد وقد تنصر فى الجاهلية :

سعى الأعداء لا يألون شرا عليك ورب مكة والصليب

وقال الأخطل وكان مجاهراً بنصرانته :

حلفت بمن تساق له الهدايا ومن حلت بكعبته النذور
وقال أيضاً :

لقد حلفت بما أسرى الحبيج له والناذرين وماء البدن في الحرم
وقال أيضاً :

انى حلفت رب الراقصات وما أضحي بمكة من حجب واستار
وبالهدى اذا احمرت مزارعها فى يوم نسك وتشريق وتنحار
فترى مما ذكرنا أنهم اذا اجتهدوا بالقسم حلفوا بالكعبة ومشاعر
الحج . وبذلك جاء التصريح منهم ، قال حسان بن ثابت الأَنْصارى فيما قال
قبل إسلامه :

انى ورب المخيسات وما يقطعن من كل سربخ جدد
والبدن قد قربت لمنحرها حلقة بر اليمين مجتهد
وقال عارق الطائى :

فأقسمت جهداً بالمنازل من منى وما سحقت فيه المقادم والقمل
وبقى ذلك فى الاسلام . قال الفرزدق :

ألم ترنى عاهدت ربى واننى لبن رتاج قائمًا ومقام
على حلقة لا أستم الدهر مسلما ولا خارجًا من فى زور كلام
وقال الحطيئة :

لعمر الراقصات بكل فج من الركبان موعدها منها
فتلك جل أقسامهم الدينية ولا يخفى عليك أنهم لم يريدوا بها الا إظهار

الاله المعبود الذى جعلوه شاهداً وبذلك جعلوه وميلاً وكفيلاً على العقود. ومراهم أنهم ان كذبوا بعد ذلك أسخطوا الله كما صرح به النابغة فى أبيات مرت فى هذا الفصل . وأما مراد الصلحاء من اشهاد الله تعالى فليس الاعتمادهم وتوكلهم على ربهم واطهار جدتهم فى شهاداتهم كما سترى فى أمثلة تجدها فى آخر هذا الفصل . وانما ذكرت العرب فى ايمانهم الكعبة والنحر عندها ومسحها تأكيداً لمعنى الاشهاد وإشارة الى طريق قسمهم بالاله عند بيته ولذلك ترى زهيراً يسمي المنحر « مقسمة » وانه هناك تجمع ايماننا واذا كان القسم بمحض اسم الرب عاماً لا ينتبه له بينوه بذكر أصله وصوروه ببيان شكله ليكون أوقع فى القلب . وهذا المراد الذى فهمنا من أحوالهم واشعارهم يؤيده تصريحهم باشهاد الله تعالى فى ايمانهم فيقولون : « والله شهيد » ، « والله يعلم » أو ما يشبهه كما قال عمرو بن معدى كرب :
الله يعلم ما تركت قتالهم حتى علوا فرسى بأشقر مزبد
وقال الحارث بن عباد :

لم أكن من جناتها علم الله وانى بحرّها اليوم صال
أو كما صرح النابغة الذبياني فى ذكر قصة الحية وحليفها الذى لدعت ابنه فمات ثم صالحته على أن تعطيه دية ابنه فلما كاد الرجل أن يستوفى الدية هم بقتلها ولكن وقاها الله ضربته فحينئذ دعاها للعهد مرة أخرى. فذلك يذكر النابغة بقوله :

فقال : تعالى نجعل الله بيننا على ما لنا أو تنجزى لى آخره
ف قالت يمين الله افعل اننى رأيتك مسحوراً يمينك فاجره

أو كما صرح به النبي ﷺ في خطبة البلاغ فقال بعد ما بلغهم عوازم الأمور «أهل بلغت اللهم أشهد» فجعل الرب شاهداً على ما عاهد بهم. أو كما قال حين رجع إليه ابن اللبينة الأزدي وقد استعمله على الصدقة وأخذ الهدايا فأسخط النبي ﷺ فبعد ما أخبرهم النبي بتبعات الغلول رفع عليه السلام يديه إلى السماء وقال «اللهم هل بلغت» ثلاث مرات. فهذا رفع اليد كان لاشهاد الله تعالى على ما قال كأنه قال اللهم أشهد. وهكذا نرى اشهاد الله برفع اليد إلى السماء في قصة إبراهيم عليه السلام. جاء في سفر التكوين ص ١٤ عدد ٢٢ «فقال إبرام (إبراهيم) ملك سدوم رفعت يدي إلى الرب الإله العلي مالك السماء والأرض، ٢٣ لا آخذن لا خيطاً ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك» أي أقسمت بالله على ذلك وأشهدته وعاهدته. ورفع اليد في الصلاة للعهد والشهادة وتفصيل ذلك في كتاب أصول الشرائع. أو كما صرح به إقريآن في غير موضع وقد مر أمثاله في الفصل الثامن وجلة الكلام أن الأيمان الدينية أيضاً أصلها الاشهاد وإنما اختلط بها معنى التعظيم من جهة المقسم به لا من جهة محض الاشهاد الذي هو أظهر معنى القسم بالشيء. ويتضح هذا الأمر من نوع آخر من أقسامهم التي أشهدوا فيها بالمقسم به على وجه الاستدلال لا غير وهو مسلك لطيف من البلاغة، ونذكره في الفصول الآتية

القسم على وجه الاستدلال بالمقسم به

(١١) قديين مما ذكرنا أنهم كانوا يقسمون بالشهادة من أنفسهم أو

بالشهادة بالله تعالى واذ كانت الشهادة بالله أكبر للشهادات كثر القسم بها ، ولذلك ظن من قل التفاته إلى أساليب الكلام وفنون بلاغته أن الاشهاد لا يكون إلا بالعبود وعلى جهة التعظيم ، ولكنك اذا سرحت النظر في كلام العرب وغيرهم وجدت أنهم ربما أشهدوا بأشياء لم يعبدوها ولا عظموها وإنما أرادوا الاستدلال يجعل المقسم به شاهداً على أقوالهم بل ربما تجمع جهة الاستدلال بالأقسام الدينية أيضاً وسيأتيك ذكره في الفصل الخامس عشر . وأما هاهنا فإما نذكر أمثلة القسم الاستدلالي ونوضح مفهومه . فمنها ما قال أبو العريان الطائي يمدح حاتم الجواد :

قد علموا والقذور تعلمه ومستهل الغرار مطرد
أن ليس عندا عتار طارقها لديك الا استلالها مدد

ومنها ما قال الراعي :

اب السماء وان الريح مشاهدة والأرض تشهد والأيام والبلد
لقد جزيت بني بدر ببعيتها يوم الهبأة يوماً ما له قود
ومنها ما قال النابغة الذبياني :

والخيل تعلم أنا في تجادلنا عند الطعان أولو بوسى وانعام
ومنها قول عنتره :

والخيل تعلم والفوارس انني فرقت جمعهم بطعنة فيصبل
فقد رأيت في هذه الأمثلة أنهم أشهدوا بالقذور ، والمدية ، والسماء والريح ، والأرض ، والأيام ، والبلد ، والخيل ، والفوارس . وليس المراد الا أنك لو سألتهم ونطقن لشهدن على دعوانا

ومن هذا الأسلوب ما قال الفضل بن عيسى بن ابان في وعظه :
 « سل الأرض فقل من شق انهارك وفرس أشجارك ، وجنى ثمارك .
 فان لم تجبك حوارا ، أجابتك اعتبارا » ولعل هذا الكلام مأخوذ
 من صحف أيوب عليه السلام ، قال ص ١٢ عدد ٧ - ١٠ « فاسئل البهائم
 فتعلمك ، وطيور السماء فتخبرك ، أو كلم الأرض فتجيبك ، ويحدثك
 سمك البحر من لا يعلم من كل هؤلاء أن يد الرب صنعت هذا الذي بيده
 نفس كل حي وروح كل انسى » ومثل هذا ماجاء في صحف موسى عليه
 السلام سفر التثنية ص ٣٠ عدد ١٩ « اشهد عليكم السماء والأرض قد
 جعلت قدامك الحياة والموت ، البركة واللعنة ، فاختر الحياة لكي تحيا
 أنت ونسلك » فأراد بهذا الاشهاد أن عهدى هذا بكم لا يؤخذ سراً بل
 نجعله مشهوداً ومشتهراً فان نقضتموه لزمكم عاره دائماً أبداً فتى ما
 أظلمتكم السماء وأقلتكم الغبراء جاءتكم اللعنة والعذاب من فوقكم وتحتكم
 فضرَب السماء والأرض مثلاً لدوام العهد ولزوم ذلة النقص ، فكأنه
 عليه السلام أقام عليهم شاهدين لا يفلتون منهما أبداً وآيتين لا
 تغربان عنهم

ومما يحلو الشبهة عن القسم الذى يشهد فيه بما ينطق بلسان الحال انهم
 كما أشهدوه بكلمة « يشهد » و « يعلم » أو ما يشبههما فكذلك أشهدوه
 بكلمات خصت بالقسم أو نصت له مثل واو القسم ولعمر أو ما يشبههما .
 فان لم يطمئن قلبك بالأمثلة السابقة فدونك أقساماً صريحة بأمور ناطقة
 بلسان الحال . فنها قول عروة بن مرة الهذلى :

وقال أبو أمامة يال بكر فقلت ومرخة دعوى كبير
يستهزئ الشاعر بأبي أمامة على استغاثته بقبيلة بكر . فقال هذه
دعوى كبيرة أى ما أصغر من يدعوهم لنصره فأقسم بشجرة صغيرة لا
تؤوى من يلوذ بها وضربها مثلاً لأضعف الأشياء ملاذا . ويتضح هذا
المعنى مما قال أبو جندب الهذلى :

وكننت اذا جار دعا مضوفة اشمر حتى ينصف الساق مئزرى
فلا نحسبها جارى لدى ظل مرخة ولا تحسبنه ققع قاع بقرقر
ومنها قسم الهجرس حين قتل جساسا قاتل أبيه فقال « وفرسى
وأذنيه ، ورمحي ونصليه ، وسيفي وغراريه ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو
ينظر اليه » فأقسم بهذه الأشياء استدلالاً بها كأنه قال فكيف أترك
قاتل أبى وأنا قادر على الكر والفر والطعن والضرب فذكر فى قسمه ما
يصدق دعواه ويستدل به على وجوب ما أراد به
ومنها قسم طرفة :

وقربة ذى القربى وجدك اننى متى يك أمر للنكيثة أشهد
أراد أنه كيف لا يشهد مجلس ذوى القربى اذا اجتمعوا لأمر كبير ولا
يراعى منزلة الرحم وهى عظيمة عندهم وكانوا ينشدون بالله والرحم فأقسم
بها استدلالاً على لزوم مشهده . ومنها قول الحصين بن حمام يرثى نعيم
ابن الحارث خليله :

قتلنا خمسة ورموا نعيما ، وكان القتل للفتيان زينا
لعمر الباكيات على نعيم لقد جلت رزيتة علينا

فلم يقسم بالباقيات إلا لأن حالهن يشهد على جلالة هذه الرزية .
وهذا النوع من القسم وإن لم يكثر في كلامهم لدقة مذهبه ولغلبة أقسام
أخر ولكنه طريق واضح وأسلوب خاص يجمع أبواباً من البلاغة كما
سيأتيك بيانها في الفصل السابع عشر . ويوجد في العرب والعجم وكذلك
على عمومهم بآراء بعض الأمثلة من كلام اليونانيين

القسم على وجه الاستدلال

في كلام ديماستنس أعظم بلغاء يونان

(١٢) كانت اليونان في أول أمرهم على حرية كاملة لم يملكهم
ملك بل يدور أمرهم على الجمهورية ، حتى نشأ فيهم فيلبوس أبواسكندر
الأعظم فتملأ عليهم ولكن لم يستقر حكمه إلا بعد مشاجرات بالجمهور
وكان يحرضهم عليها أعظم خطبائهم ديماستنس الشهير فلما هزمهم فيلبوس
قام هذا الخطيب على أهل أثينة وهي عاصمة بلادهم ، وألقى عليهم خطبته
الطنانة يسليهم على هزيمتهم ويمدحهم على القاء نفوسهم إلى الهلاك لبقاء
حريتهم ، وكان خطيب آخر يسمى اسكنس يمنعهم عن مخالفة الملك فقال
ديماستنس راداً على اسكنس ومادحاً أهل أثينة :

« أيها الأثينيون انكم لم تكونوا على الباطل حين خاطرتم بنفوسكم
في القتال عن حرية يونان وسلامتها ، وفي ذلك لكم أسوة في أسلافكم ،
فانهم لم يكونوا على الباطل : الذين قاتلوا على مراثن ، الذين قاتلوا على

على سلامس ، الذين قاتلوا على فلاطى . انكم لم تكونوا على الباطل . كلا ،
لم تكونوا . أقسم بالذين خاطروا بنفوسهم على معركة مران ، الذين من
أسلافكم ألقوا بنفوسهم الى الهلاك على ميدان مران ، الذين كانوا في
الحرب البحرية عند سلامس وارطيميسم والذين كانوا على فلاطى .
فيا سكندس ان أهل البلد لم يكرموا الفائزين منهم فقط بل أكرموا
أجمعين باكرام جنازتهم اكراما جمهوريا »

يعنى لم يكرموا على فوزهم بل على محاماتهم واستماتهم للحرية ،
فكذلك أنتم وان لم تفوزوا فقد بذلتم نفوسكم للدفاع عن الحرية
فانظر في هذا القسم كيف مثل أسلافهم وفعالهم بين أيديهم ليملاً قلوبهم
بالفخار المسلم عندهم فضرب لهم مثلاً وجعل حسن مساعيتهم شاهداً على حسن
مسعاة المخاطبين . وأخرج الكلام مخرج القسم الذى بنى على التأكيد .
واشتهر هذا القسم لبلاغته واستجاده السلف والخلف من الناقدين .
ولكن أرى المتأخرين منهم أخطأوا كما أخطأ علماءنا فان لانجنوس اليونانى
الذى نشأ بعد ستمائة من ديماستنس وكان معلماً للبلاغة فى أثينة ومشهوراً
بغزاره العلم فى زمانه ، ذكر هذا القسم فى كتابه على البلاغة وقال فيه ان
حسنه فى غاية تعظيم المقسم بهم فان ديماستنس جعلهم بمنزلة الآلهة وانكر
على من قال ان هذا الاسلوب مأخوذ من قول الشاعر بوليوس الذى
أقسم بالكلية . وانى أذكر قسم بوليوس أيضاً ليكون مثلاً ثانياً ولتعلم
أن الرأى الذى أنكره لانجنوس هو الرأى القويم

القسم على وجه الاستدلال

في كلام بوليوس الشاعر اليوناني

(١٣) كان من سنن يونان في زمان حريتهم أنه اذا فعل أحد منهم أمراً عظيماً نافعاً لهم عصبوا برأسه اكليلاً تشريفاً لقدره واعترافاً بحقه ، وكان الشاعر بوليوس نال منهم هذا الاكرام في حرب مران لما ألبى بلاء حسناً . ثم بعد ذلك اتهمه بعض حساده بأنه ساخط بالقوم ليزرع بهذه التهمة بغضه في قلوبهم فازاح بوليوس هذا الظن عن نفسه بقول ترجمته :

لا واكليلى الذى نلت لدى مراننا

لا يرانى شامت أضمر سخطاً كامناً

فاقسم بأكليله الذى ناله من أيدي قومه استدلالاً على عدم سخطه بهم كأنه قال كيف أسخط على قومي بعد أن أكرموني بهذا العز . فترى في هذا المثال كما رأينا في أمثلة آخر أن القسم لا يختص بالاله وبذلك ينهدم ما بنى عليه لانيجنوس رأيه وتبين لنا أن من جعل قسم ديماسنس مشابها بقسم الشاعر بوليوس أصاب المراد فانهما استعمالاه على وجه الاستدلال وضرب المثل وليس المراد منه تعظيم المقسم به فان كان المقسم به في نفس الامر عظيماً فهذا من محض الاتفاق ولا يتعلق به غرض القسم . محض القسم ساكت عن عظمتها ألا ترى عروة بن مرة الذى مرَّ شعره في الفصل الحادى عشر كيف أقسم بالمرخة وضربها مثلاً لغاية الذلة والضعف

شرح دلالات القسم الاستدلالي

(١٤) بعد ما وقفت على أمثلة القسم الاستدلالي من النثر والنظم والعرب والعجم وتبين لك أنه أسلوب خاص من البلاغة يريد أن يجمع لك في هذا الفصل ما فيه من الدلالات الاستدلالية التي ذكرناها في الفصول السابقة أشتاتا نتفهمها كل الفهم فان ذلك من مهمات مباحث هذا الكتاب ثم تجد زيادة عليه حين نذكر ما في القسم من أبواب البلاغة فاعلم أنهم اذا شهدوا على وجه الاستدلال ربما أرادوا به شدة وضوح المقسم عليه كما ترى في قول الراعي :

ان السماء وان الريح شاهدة والارض تشهد والايام والبلد
يعني ان الامر بلغ غاية الشهرة والمعرفة حتى أن كل شيء يشهد به
فذهب في آفاق السماء وأقطار الأرض وجرت به الريح في كل جانب وبلغ
كل بلد وكفلت الايام بابقائه على صفحات الدهر . وغاية التأكيد في أن
هذه الأشياء التي لأروح لها تشهد به فكيف بأهل السمع والبصر
والنطق

وهذا بحسب الظاهر مبالغة ولكنه بنى على الصدق فان المراد به
غاية الشهرة وعموم العلم به ويشبه ذلك ما مر من قسم موسى عليه السلام
حيث أشهد السماء والأرض . وربما أرادوا به ضرب مثل على وجه التشبيه
ادعاءً من المتكلم كما ترى في قسم عروة بن مرة فإنه ضرب المرخة مثلاً بقبيلة
بكر التي استغاث بهم أبو امامة فشبههم بالمرخة وهذا محض الادعاء ،

ولكن الدعوى اذا كانت بطريق الاشارة يتلقاها المخاطب بالقبول مثلما تراد في التشبيه والكناية كما بينوه في كتب المعاني ونرجع الى هذا البحث في الفصل السابع عشر ان شاء الله تعالى . وربما أرادوا به تأييداً للقول فاشهدوا بالمقسم به لكونه مؤكداً للمقسم عليه كما ترى في قول بوليوس فانه أشهد بأكليله الذى أكرمه به قومه وهو أقصى الغاية عندهم في التعظيم فكأنه قال في رد قول مخالفه انى بعد هذا الشرف الدائم كيف يظن بى أنى أسخط بهم . وكان في هذا الاستدلال ضعف فانه يمكن لمخالفه أن يقول أنت مع هذا الاكرام العظيم تبذلت وصرت جاحدا نعمة فاكد قسمه بالا كليل بذكر شرف نفسه فقال انى اقتنيه في أشهر حروبهم التى بدت فيها منازل سرات القوم فكنت فيها من الطراز الاول . فبعد هذا التأكيد لم يترك لخصمه الا محل حسود يسىء الظن بالكرام ولكن في هذا الاستدلال لا يتم التقريب بين الدعوى ودليلها . وربما أرادوا به حجة قاطعة على قولهم بذكر أمر جامع بين المقسم به والمقسم عليه كما ترى في قسم ديماستنس فانه ذكر حسن فعال أسلاف المخاطبين وهم لا يشكون فيه واحتج به على حسن فعال الذين اتبعوا أسلافهم ولذلك صرح أولا « بأن لكم اسوة فى أسلافكم » وهذا لعمر ك أحسن وجود هذا النمط من القسم

الدلة المأخوذة من نفي القرآن

على ما فيه من الأقسام الاستدلالية

(١٥) بعد ما تبين لك أن القسم أصله الاستشهاد وأنه لا يراد منه التعظيم إلا إذا كان بالله تعالى وبشعائره، وعلمت أنه ربما يكون لمحض الاستدلال لا يخفى عليك أن أقسام القرآن التي بنى عليها المعارض الشبهتين الأخيرتين ليست إلا للاستدلال والشهاد بالآيات الدالة فإن قال قائل هب أن أصل القسم هو الشهاد ولكنه لكثرة استعماله للتعظيم صار كالمنقول وأصله كالمذلول ولذلك نهى عن القسم بغير الله تعالى فلا يصار إلى الأصل إلا بدليل واضح بين . قلنا سلمنا ولكننا لم نذهب إلى هذا المعنى الخاص لأقسام القرآن إلا بدلالة القرآن من وجود كثيرة ودونك بيانها : الأول ، علمنا من سنة القرآن من استعماله بعض الكلمات مرة للعبد وأخرى لله تعالى . وحينئذ يميز بين وجوهها حتى لا يكون مخالفاً بجلالة ربنا جلّت عظمتة مثل كلمة الصلاة فإنها الدعاء من العبد والرحمة من الله تعالى وكلمة الشكر فإنها من العبد الاعتراف بالنعمة ومن الله تعالى قبوله الحسنات من عبده ، وهكذا التوبة ، والسخط ، والمكر ، والكيد ، والأسف ، والحسرة وغيرها . بل ما من كلمة إلا يميز بين وجود معانيها إذا استعملت لله تعالى . ويؤخذ بأحسنها ويترك ما لا يليق بذاته المقدسة . وقد علمنا الوجوه الكثيرة للقسم فحملناه على وجه يليق بجلالة ربنا وأخذنا بما « هو خير وأحسن تأويلاً » . والثاني ما تهتدى إليه من حمل النظم على

النظير وتفسير الآيات بعضها ببعض فانك ترى القرآن يذكر الأمور الدالة تارة على أسلوب القسم بها وأخرى على أسلوب الآية والعبرة وكلها اشهاد لمن يتفكر فيها . قال تعالى « ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ومثل هذا كثير فيذكر الله تعالى آياته ويحتج بها . ثم ترى هذه الآيات أشهد بها القرآن على أسلوب القسم فأشهد بالسماء والأرض والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والفجر ، والضحي ، والربيع والسحاب ، والجبال ، والبحر والبلد ، والإنسان والوالد والولد ، والذكر والانثى ، والشفع والوتر . فكونها آيات دالة له نظير ولا سبيل الى ارادة تعظيمها . والثالث ما يدل على نفسه المقسم به فان العاقلة لا يتوهم أن الله تعالى يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدس لاسيما الذي ليس له كبير تقدس كالخليل العادية والريح الذارية وقد صرح القرآن بكون هاتيك المقسم بها من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها مسخرة مذلة طاعة ففي نفس القسم بها دلالة على أن المراد محض الاشهاد بها . والرابع ما ترى من المناسبة الظاهرة بين المقسم به والمقسم عليه فان القرآن وضع أكثر هذه الأقسام بحيث لا يخفى على العاقل جهة دلالتها على ما أقسم عليه ولذلك ترى صاحب التفسير الكبير رحمه الله مع ظنه بأن القسم للتعظيم وتكلفه لبيان فضائل التين والزيتون لم تحف عليه جهة عامة في

دلالة الأقسام التي جاءت في أول سورة الذُرِّيَّةِ فقال « انها كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان » ولم تأمل في سائر أقسام القرآن التي جاءت على وجه الاستدلال لاختار هذا التأويل في جميعها . والخامس ما ترى من تعميم المقسم به على طريق تعميم الآيات الدالة كما قال تعالى « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » فلم يترك شيئاً الا وقد أقسم به كما قال « وان من شيء الا يسبح بحمده » فلم يترك شيئاً الا وقد أنطقه بحمده وأشهد بحمده . ويشبه هذا التعميم استعمال المتقابلين حيث أقسم بالليل والنهار والارض والسماء ، فكيف يظن أن الله عظم كل شيء والسبيل الى جعله آية دالة ظاهر فلا يصار الا اليه . والسادس : ما يتبع المقسم به من التنبيه على كون المقسم به دليلاً للعقلاء كما قال تعالى « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر والليل اذا يسر هل في ذلك قسم لذي حجر » فهذه الجملة الاخيرة مثل ما تجد كثيراً في القرآن بعد ذكر الدلائل كما جاء في سورة النحل « ان في ذلك لايات لقوم يعقلون » أو كما جاء في سورة طه « ان في ذلك لايات لاولى النهى » أو كما جاء في سورة آل عمران « ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار » وهذا كثير . فهكذا هاهنا بعد ذكر الاقسام نبه على كونها دلائل لذي عقل وبصيرة ويشبه ذلك ما جاء من التنبيه بعد القسم في سورة الواقعة حيث قال « فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم » أى ان فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة فصرح بعظمة القسم لا بعظمة المقسم به . والسابع ما ترى في ذكر المقسم به على صفة خاصة تشير الى جهة الاستدلال كقوله تعالى « والنجم اذا

هوى « وقوله تعالى « فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس » وقوله تعالى « وَالصُّفُوفُ صَفَا فَنَزَّاجِرَاتُ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتُ ذِكْرًا » وقوله تعالى « وَالدُّرَيْتُ ذُرُوءًا فَالْحَامِلَاتُ وِقْرًا فَالْجَارِيَتُ يَسْرًا » فالتقسيمُ أمراً » وقوله تعالى « ولا أقسم بالنفس اللوامة » وغيرها فهوى الثريا وخنوس النجوم وصف الملائكة وذرو الرياح وتقسيمها الامور وملامة النفس أقرب الى الاستدلال منها الى التعظيم . والثامن ما يسبق المقسم به من صريح ذكر الآيات الدالة ثم يعبر عن المقسم به على وجه يشير الى تلك الآيات كأنه مهد من قبل لما اريد من وجه الاستدلال وهذا مما يهتزل به المتدبر فى نظم القرآن . ويتضح ذلك بالمثال قال تعالى فى سورة الذرير « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون » أى ان لكم فيهن آية على الربوبية والدينونة كما فصل ذلك فى غير موضع من القرآن فبعد ما ذكر أن الأرض والسماء قد اشتملت على آيات الجزاء بل على نفس الجزاء بقوله « فورب السماء والأرض انه (أى الدين الجزاء وليس المراد به القرآن كما توهموه) لحق مثلاً أنكم تنطقون » فلا يخفى أن هذا القسم مع دلالة على التقديس لكونه اشهاداً بالله تعالى قد تضمن الاستدلال بآيات فى الارض والسماء لما عبر عن المقسم به على صفة تشير الى ما سبق من صريح الاستدلال بالآيات الدالة ولما كان وجه التعظيم فى هذا القسم أظهر وكاد يشغل عن وجه الاستدلال حسن التهديد له من قبل . وفى هذا القدر كفاية ان شاء الله تعالى . فان سأل سائل كيف خفي الصواب على العلماء أم كيف يطمئن القلب بهذا القول المبتدع أجيبناه بما نذكره فى الفصل الآتى

بعض أسباب خفاء الوجه الصحيح

في تأويل أقسام القرآن

(١٦) مما ذكرنا من أقوال العلماء في الفصول السابقة نرى أن هذا المعنى للقسم ليس ببدع بيد أنه خفي عليهم بعض وجوهه ومعانيه فلم يتمسكوا به كل التمسك فاما ان تركوه في بعض المواضع واما خلطوا به معنى آخر . ولندكر هنا بعض أسباب الخفاء ليظهر عذرهم . فالسبب الأول : أنه في بعض المواقع كان المقسم به في نفسه شريفاً مثل القرآن والطور ومكة ، أو الشمس والقمر والنجوم ، أو العصر والليل والنهار ، فلم يحتاجوا الى جعل الاقسام به استدلالاً وقد ظنوا أن القسم بالشريف العظيم عام شائع . فاذا وجدوا المقسم به ذا احتمالات أخذوا منها ما يشبه بالشرافة وبهذا السبب منعوا عن التعرّيج الى السمت الصحيح وذهبوا من القسم في مذهب عام كما أن الماء يجري الى الخفض ان لم يصرفه صارف . والسبب الثاني : أن الحكماء نجحتهم الامور الكلية فلا يعجبهم رأى ينخرم بعض جوانبه : ووجه الدلالة في الاقسام مع ظهوره في بعض الامثلة كان خفياً في بعضها ولما لم يتبين لهم وجه الدلالة فيه زعموا أن هذه الكلية لا تصح ها هنا وليس من دأب أكثرهم أن يقرؤا بالعجز ويحولوا العلم الى الله تعالى كما ترى ذلك في مسألة نظم القرآن فانه ظاهر واضح في أكثر المواضع ولم يشكل كل الاشكال الا في قليل فلو اعترفوا بالجهل كما فعل

بعضهم لكان حرياً بهم ولكن تراهم لم يعتمدوا على وجود النظم وإنما أرادوا بذلك أنه ليس كلياً فظن العوام أن لا نظم في القرآن وكلها اقتضاب والصواب أن تتحرى في كل أمر ما هو الأولى والاحسن وقد دلت عليه دلائله وبدت مخايله وترجح جانبه وتوضح لاحبه ونكون كما قال تعالى «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب» فإن أشكل علينا بعض وجوهه نسبناه الى قلة علمنا وسيجعل الله يسراً بعد عسر وجبراً بعد كسر والعلوم مزايدة، والله يهدي من يشاء . فمحض غموض جهة الاستدلال في بعض الاقسام لا يصرفنا الى رأى باطل مع سخافته . ألا ترى الآيات الدالة ليست كلها ظاهرة الدلالة بحيث لا تحتاج الى تأمل والقرآن صرح بذلك وندب الى التفكير والتدبر فيها بل صرح بأنها لا يفهمها الا العاقلون المتقون كما جاء كثيراً في القرآن والصحف الأولى ومع ذلك لا نشك في أنها دلائل قاطعة وحجج ساطعة فهذا التحرى هو الخطوة الأولى للتأمل واعمال العقل حتى تنحل الاشكالات ويطمئن القلب بعد العلم . وانى بحمد الله تعالى لم أطمئن لهذا الرأى الا بعد أن تأملت في جميع أقسام القرآن حتى تبين لى أنها دلائل ولم يدلنى عليه الا القرآن من وجوه عديدة كما مر ذكرها آنفاً . والسبب الثالث : وهو مدار الاولين أنهم لما وجدوا القسم بالله تعالى وشعائره شائعاً غلب على ظنهم أن ذلك أصله فاذا وجدوا القسم بغيره جعلوه مجازاً ثم رأوا أن المجاز لا يصار اليه الا اذا تعذرت الحقيقة ولكن محض الكثرة ليس دليل الاصلية ولا المصير الى المجاز مشروط

بتعذر الحقيقة بل الصواب أن تأخذ من المعاني ما هو أحسن وأحرى وأشبهه بالسياق وما له نظائر في باقي الكلام . فلما جعلوا الفرع أصلاً خفي عليهم حقيقة معنى القسم بالشيء ، وهو الاشهاد به فقولهم في بعض الأقسام انها دلائل لم يكن الا لشدة وضوح هذا المراد فيها كأن القرآن دعاهم بصوت جهورى وجذبهم ببطش قسورى الى صحيح مغناه ومع ذلك هم على الظن الاول فلم يكن الخفاء من جهة القرآن بل من بعض الظن منهم عفا الله عنهم . والسبب الرابع : شهرة بعض أمور ذات وجوه على وجه خاص مثل قصة هلاك فرعون وقومه فان المشهور أنهم أهلكوا بمحض الماء ولا يرون فيه دخلاً للريح وحقيقة الامر أنه كان من عجائب تصاريدها بأمر ربها وهكذا الامر في طوفان نوح عليه السلام كما بيناه في تفسير سورة الدريث فمما كانت المناسبة بين القسم به والمقسم عليه مبنوطة ببعض هذه الوجوه خفي وجه الاستدلال على من خفي عليه ذلك الوجه ولما لم يكن تفصيل هذا القصص من مهمات العقائد والاحكام لم يلتفت اليها علماءنا رحمهم الله تعالى . والسبب الخامس : وهو يشبه ما قبله أن علماءنا رحمهم الله تعالى شغلهم العلوم العقلية والنقلية المشهورة عن علوم هي أكبر منها نفعاً في التفسير وذلك هو علم لسان أوحى به الينا والى من قبلنا وتاريخ هذه الامم السامية وعلومهم وآدابهم ، واذ هي لا تختص بمسئلة القسم لا نبسط القول فيها ولا حاجة الى استقصاء أسباب الخفاء فليكن هذا القدر منها

ذكر بعض ما في القسم

من أبواب البلاغة ولطائفها

(١٧) لعلكم تقول ان كانت هذه الأقسام دلائل لا غير فلم
 كم تذكر على أسلوب الاحتجاج الصريح؟ فاعلم أن الاستدلال اذا كان على
 أمور لا تتعلق بها الرغبة والنفرة مثل ما ترى في العلوم الطبيعية والرياضية
 أو في تاريخ الاولين على الاكثر كان ذكر الأدلة فيها أولى بالتصريح فاما
 اذا استدللنا على أمور نفسانية تصادم فيها من القائل والسماع حث
 واستنكار وزجر واستكبار والحاح واصرار، احتجنا الى ايراد الأدلة على
 وجوه مختلفة من أساليب الكلام متفاوتة في الوضاحة واللطافة والقوة
 والحدة. وربما تبدل الأسلوب لمحض الاجتناب عن ملال السامع أو الرجاء
 أن ينجح فيه بعض الأساليب أكثر من بعض كما صرح به القرآن
 « انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون » وكما فعل ابراهيم عليه
 السلام مع الذي حابه في ربه فترك الاصرار على الدليل الأول حين لم
 يفهمه الخصم وعمد الى دليل آخر أقرب الى فهمه « فهت الذي كفر »
 فهذه جملة الجواب ثم في أسلوب القسم معان مفيدة للاستدلال مما يفتح
 عليه من البلاغة أبواباً ويلقى عليه من المحاسن جلباباً. ونذكر هنا بعض
 تلك المعاني ونذكر على ما فيه من البلاغة. الأول: هو اظهار التأكيد
 والجد في القول كما ترى في قول المرسلين من النصارى حيث جاء في

«القرآن» قالوا ربنا يعلم انا اليكم بارسلون ، وما علينا الا البلاغ المبين »
أو كما ترى في قوله تعالى «والسما ذات الرجع ، والارض ذات الصدع ،
انه لقول فصل ، وما هو بالهزل » وقد علموا أن الحر المهذب اذا أقسم
على أمر فقد بالغ في اظهار الجدمه ونفى عن نفسه الهزل ، ولذلك كثر
القسم في أوائل النبوة حتى تبين لهم جدمه وقد صرح في المثالين المذكورين
وذلك لخصوصية في أسلوب القسم لا لأن فيه تعظيما كما ترى تأكيد
الاثبات والانكار بأسلوب الاستفهام أو التعجب في أكثر الألسنة
أو تأكيد التعجب بالنداء كقولك يا للماء «ويالقومي للشباب المبكر»
والثاني كون القسم انشاء وذلك يهيم طريق الانكار على الخصم فانه ان
شاء أنكر جواب القسم لكونه خبراً ولكن لا يسع له أن ينكر نفسه القسم
لكونه انشاء كما انه لا يتوجه الى انكار الصفة مع انها في الحقيقة من
الأخبار وربما يجمع أقسام القرآن هذين الخبرين كالقسم «بالقرآن المجيد
وباليوم الموعود وبالقسمت أمرأً وبالفارقت فرقا وبالصفت صفا فان
شرحها رأيت فيها جملتين خبريتين مثلاً ان الملائكة صافون كالعبيد وان
الرياح تفرق وتميز حسب أمر الله وان لهم يوماً موعوداً وان هذا القرآن
مجيد . فهذه أخبار أدمجت في الصفت ثم زيد عليها ما أدرج من القسم
وهي ان هذه الأشياء شواهد ودلائل . فان كان ذلك مما ينتبه الخصم
لانكاره فتارة يصرف الخطاب الى النبي كقوله تعالى «يَس وَالقرآن
الحكيم انك لمن المرسلين » وتارة يحذف جواب القسم الذي يكون
جملة خبرية فينثذ يكتفى بالقسم به ويبادروهم بكلام آخر مؤيد لما حذف

لكيلا يجد الخصم فرصة لتحويل الانشاء الى الخبر فينزع فيه ولكي يجد الكلام فرصة فيه فيستمع بعد القسم لما ينتظر جوابه فيهمج عليه ما يؤيد الاستدلال المقصود من الكلام السابق ، كقوله تعالى « ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » فاكتمنى بالجملة الانشائية واجتنب الخبرية وقد فرغ عنها بما ذكر في القسم من صفة القرآن كأنه قيل « قد شهد القرآن أنه لذكر ونصح لهم » ثم ذكر من خصائصهم ما لا ينكرونها بل يباهون بها وأشار الى ان انكارهم ليس الا لحمتهم الجاهلية وجدالهم بالحق . ومثل ذلك قوله تعالى « ق وَالْقُرْآنَ الْحَمِيدَ بَلِ عِجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ » أى قد شهد القرآن انه لندير مبين من الله تعالى بالبعث ، ولكنهم ينكرونه لما يعجبون أن يأتي به منذر منهم . فأما اذا كان القسم مما لا ينكرونه لم يحذف الجواب كقوله تعالى « حَمِّ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ اَنَا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » فذكر في القسم كونه كتاباً مبيناً وفي الجواب كونه قرآناً عربياً ولا ينكرون شيئاً منهما . وأما كونه منزلاً من الله تعالى فلم يخبر به كدعوى على حدة بل جعله أصل الكلام بما خاطبهم بنفسه فلا يتجه الانكار اليه . هذا - ولو لا كراهية الخروج عن موضوعنا لبسطنا الكلام في حذف جواب القسم وفوائده وذكره تحت آيات القسم أولى والثالث ايجاز هذا الاسلوب للاستدلال فان اللفظ اذا قل يترأى المعنى متجرباً عن حجه فيزيده تنويراً وتأثيراً كأنه أرهف حده وقرب بعده وهذا مما يجعل الاستعارة أحياناً أبلغ من التشبيه ولا حاجة الى توضيح

حسن الایجاز فانه مبسوط في كتب البلاغة وقد بالغ في استحسانه بعض كتاب زماننا فقال ان الایجاز هو البلاغة ، وتكلف في رد جميع المحاسن اليه. وانما جعله أصل البلاغة لتشعب أفنائه وتقلب ألوانه فلم يدخل باباً من أبواب البلاغة الا ورأى الایجاز هناك موجوداً فقصر النظر عليه . ومن فوائد الایجاز أنه يمكنك أن تجمع دلائل عديدة في قرب بعضها من بعض فاذا دلت على أمر واحد من جهات مختلفة كن أشد أثراً وأحكم أمراً كما ترى في أقسام سور الطور والبلد والتين . فلو فصل فيها الكلام وشرح الأدلة لتشتت النظام ووهنت قوته ويقرب منها أقسام سور الفجر والشمس والليل . هذا - والعرب لذكائهم وكبريهم كانوا يحبون الایجاز أكثر من أفوام آخر ولذلك لا ترى شيئاً من القرآن الا ومعناه أوفر من اللفظ فان أطنب قولاً من وجه أوجزه من وجوه آخر ولذلك لا تنقضي عجائبه

والرابع اشراك السامع في استنباط الدليل ، وذلك مما يكسر سورة خصامه فانه اذا علم شيئاً بعد التأمل فرح به واهتز له فان المتكلم اذا جعل السامع منفعلاً محضاً أتعبه وصار كلامه عليه ثقلاً وهذا اذا لم يخالف رأيه فأما اذا خالفه اشمأز منه وسد منه أذنه ولذلك ربما يستعمل الاستفهام بدل الاخبار كقولك « ألا ترى ذلك » و « هل سمعت هذا » أو كما استفهم النبي عليه السلام في خطبة الوداع حيث سألهم أي بلد هذا وأي شهر هذا وأي يوم هذا؟ فذلك يجلب الالتفات وينشط للسمع وقد جمع القرآن هذين الأمرين في أول سورة الفجر فأشهد بأمر تدعو الفكر

الى استنباط الدلائل على تدبير الله تعالى وتقديره وعدله . ثم اتبع ذلك بقوله « هل في ذلك قسم لذي حجر » ومثل ذلك قوله تعالى « والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب » ورب مستدل حاذق يسوق المخاطب الى الدعوى بسهولة من غير تسفيه رأيه حتى يظن أنه هو الذي اهتدى اليها من قبل نفسه . وهذا مما يُصير السكناية أحياناً أبلغ من التصريح . وترى ذلك بيننا في أقسام القرآن فانها تعرض على السامع أمراً يدعو الى استعمال عقله وربما تسوقه الى سمت الدعوى بلطافة وتدرّيج كالقسم بالذرية حتى انتهى الى قوله « فالتقسمت أمرا » ومثل ذلك قسمه بالمرسلات عرفاً حتى انتهى الى قوله « فالفارقات فرقا فالتلقيت ذكراً عذراً أو نذرا » فلو ألقى عليه أولاً أن الرياح تفرق بين قوم وقوم أنكر ذلك.

والخامس وضع الدليل في غير صورته ملكيلاً يبادر المنكر الى الخصامة وذلك غير معنى الانشاء الذي مرّ آنفاً في الوجه الثاني فانه يسد باب الانكار وهذا انما يذهل عن الخصام ولكونه غير الانشاء تجده باقياً في صورة الخبر أيضاً مثلاً ان حولت قوله تعالى « والعصر ان الانسان لفي خسر » وجدت بعد هذا التحويل من الانشاء الى الخبر أيضاً فرقاً واضحاً بينه وبين صريح الاستدلال وهو أن تقول : ان الانسان لفي خسر لان مر الزمان ينقص العمر . فان هذا الاستدلال مع صحته وظهوره يدعو الخصم لحبه الجدل الى الانكار به أو بالذي ينتج منه وهو الاعتماد على الايمان والعمل الصالح فانه سيقول : كلا ، ان الانسان لفي ربح عظيم فانه

يشتري اللذائذ ويقتني اللئى بهذا العمر الذى لا بد لئن يفنى . أو سيقول:
كلا ، فانه اذ لا بد من البلى ' فليمتع بالشهوات ' أولى ، كما قال الملك
الضليل بن حجر القتييل :

تمتع من الدنيا فانك فان من النشوات والنساء الحسان
ولا شك ان تلك حجة داحضة ولكن اذا فتح باب الجدل كثر
القييل والقال . وكما زدت ايضاحاً ازداد الخضم جماعاً . فيحسن أحياناً أن
تذهله عن وجه النزاع ، فان للانسان به ضراوة كضراوة السباع . وكانت
العرب أشد الامم جدلاً وأحدّهم مقولاً كما قال تعالى « ما ضربوه لك
الا جدلاً بل هم قوم خصمون » وكذلك سماهم « قومًا لداً » واعلم أن
هذا الوجه والذي قبله مبنيان على لطافة الأدلة في الأقسام فانها كما تصرفهم
عن الانكار والنزاع فكذلك تنشطهم للفكر والاستنباط

والسادس : ما يعطى أوائل السور من نضرة بهجتها وروفق ديباجتها
فتلمع الأقسام في قسمتات السور على الاكثر كالغرة البارقة ، وأما
الذى جاء في أثناء النورة فانما هو قليل ومثاله كمجىء المطلع في
أثناء القصيدة . وليس في كل قسم تزيين ولكنه لما كان مما يستفتح
به الكلام جعله سبباً لتزيين الفواتح بأن اصطفى له كلما ان صور على
عنوان الكتاب أو تمثل للعقل في مطلع الخطاب ملأ العين والفؤاد
بحسنه وجلالته بل يحل أكثرها عن التصوير لكمال عظمتها وضيق نطاق
الخيال عن سعتها . ولا شيء من أساليب الكلام اصلىح للتصوير من
القسم فان الذى أقسمت به دعوته كالشاهد فأوقفته بين يدي المخاطب

متمثلاً ، فلما أراد الله أن يوشى عنوان السور بالوان الصور بدأها بأقسام خاصة . فترى أحياناً صورة أمر واحد كالقلم الكاتب والنجم الثاقب والخليل العاديات والرياح الذاريات والملائكة الصافات . وتنظر أخرى الى صور عديدة يضمها أمر جامع بينها كالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين . أو كالطور والكتاب المسطور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور ، أو كالشمس والقمر والليل والنهار والأرض والسماء والنفس وغير ذلك مما يدل على أحوال أو أحداث يستدل بها على مسألة مهمة ولا منزلة عند العقل لهذه التصاوير لولا أن فيها دلائل على أمور عظيمة وهذا لرعاية جانب المستمع لكيلا يتنفر فيسد أذنيه ، ومن كمال التبليغ واتمام الحجة تليين القول وتأليف القلب . وقد أمر الله الأنبياء بهذا كما قال تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما الى فرعون « فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى »

والسابع : تقديم الدليل على ذكر الدعوى فيلقى أولاً على الخصم أمراً يوجهه الى سمت لا بد أن يجلبه الى الدعوى ولكن المنكر اذا علم من قبل ما تريد الاستدلال عليه أخذ سمماً آخر وتنكب عن الوجه الصحيح فاذا لم تذكر الدعوى يوشك أن يتوجه الى صراط مستقيم فاذا سار على قصد السبيل قدته الى آخر النتيجة . ومثال ذلك كل ما ذكرنا في الوجه الرابع والخامس

والثامن : كون القسم من جوامع الكلم فان المقسم به لا يذكر معه جهة الاستدلال فلو ضم به جهة خاصة كان دليلاً واحداً ولكن الشيء الواحد يجمع معاني كثيرة ووجوهاً مختلفة وللمتوسم فيه دلائل

شئى . وهذا الامر مشترك فى ما ذكر من الامور الدالة على أسلوب الآية، لجعل شيئاً واحداً موضعاً لاستنباط دلائل كثيرة كما قال تعالى « ألم تر أن الملك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريم من آياته ان فى ذلك لايت لكل صبار شكور » وكما قال تعالى « وفى الأرض آيت للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فمن يحصى ما فى الأرض والنفس من الآيات الدالة على القدرة والعظمة والرحمة والحكمة ثم على التوحيد والرسالة والمعاد كما فصلناه فى كتاب حجج القرآن فاذا أشهد الله تعالى بعض خلقه ثم ذكر معه من المطالب الدينية التى يستدل عليها ترك التأمل أن يستنبط الدلائل من وجوه كثيرة وبعد الاتفاق فى المستدل عليه وبعد رعاية نظام الكلام لا بأس باختلاف الدلائل وطرقه فانها تتنوع وتتكرر حسب مدارج الافهام والعقول وجعل الله القرآن جم الفوائد لا تنقضى عجائبه كما لا تنقضى عجائب خلقه وحكمة صنعه قال عز من قائل « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمت الله ، ان الله عزيز حكيم » ولنكتف بهذا القدر من أبواب البلاغة التى تجدد فى أقسام القرآن وما أردت الاستقصاء ومن يطيقه ؟ . وقد تبين مما مر معنى القسم ووجوهه وبذلك انحسرت الشبهتان الاخيرتان المهمتان وأما الشبهة الاولى فاضمحلت أيضاً لما ذكرنا من حاجة الناس الى القسم وضرورته فى عزائم الامور وموقعه فى التعايش والتعاشر بين الامم والملوك والراعايا كما مر فى الفصل السادس والعاشر . وقد ورد القسم كثيراً فى الكتب المقدسة وكلام الرؤساء والبلغاء فلم يبق الآن الا تبين علة النهى عنه

الفرق بين ما يحسن وما لا يحسنه من القسم

(١٨) لما كان في القسم اما اشهاد بنفس المتكلم او اشهاد بالله تعالى وفي ذلك مخاطرة المرء بعزه وبدينه لم يحسن التلاعب به فيتجه النهي اليه من ثلاث جهات (١) اما من جهة المقسم عليه (٢) أو من جهة المقسم به (٣) أو من كليهما فاما ممن جهة المقسم عليه فمن حلف على أمور سخيفة أظهر عدم مبالاته بشرف نفسه ولذلك جاء في القرآن صيغة المبالغة في شناعة الحلف حيث قال تعالى « ولا تطع كل حلاف مهين » فدل على أن من حلف على كل أمر جل أو دق فقد أهان نفسه سواء حلف بالله أو بغيره كالذي يغضب من غير سبب أو يضحك من غير عجب فهذا من جهة المقسم عليه وأما من جهة المقسم به فاذا أقسم عبد قسماً دينياً بغير الله تعالى فكأنه اتخذها إلهاً فالمنع عن القسم بغيره تعالى على العموم سد لأبواب الشرك كالمنع عن السجدة لغيره تعالى أو كالمنع عن نحت الاصنام كما جاء في الاحكام العشرة ولذلك جاء في سفر التثنية ص ٦ عدد ١٣ « الرب الهك تتقواياه تعبد وباسمه تحلف » وهكذا نهى النبي ﷺ عن القسم بغير الله تعالى . وأما من جهة كليهما معاً فذلك أن يقسم بالله تعالى على أمور سخيفة . وهذا جمع بين قلة المروءة وقلة التقوى معاً والى هذا يشير قوله تعالى « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » فهذه هي الوجوه المحظورة في اليمين فاما دون ذلك فلا ينهي عنه لا سيما اذا دعت اليه دواعي المعاشرة كما ذكرنا في الفصل السادس والعاشر . وشريعتنا قد أنزلت للناس كافة

فتراعى حاجات التمدن ، وتميز بين دقائق الاحكام وتنظر الى ضعف فطرة الانسان كما قال تعالى « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » فلا ينبغى فيها النهى المطلق عن أمر هو المفزع عند جد الأمر وعزائم الامور المدنية والدينية كما لا ينبغى فيها المؤاخذه على عيى لم يتعلق بها نية المتكلم بل نطق بها على ما جرت به العادة في التهاور فقال تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلیم » وذلك بأن الاعمال بالنيات فيمين اللغو وان كانت خلاف المروءة لا يؤاخذ عليها لأن الرب غفور لعباده يرحمهم لضعفهم فلا يؤاخذ عامتهم على كل صغيرة . وهذا الذى ذكرنا يتعلق بالايمان العامة ، فأما أقسام القرآن فلكون جلها استدلالا لا مخاطرة فيها لشرف ولا دين فلا تمسها معرفة ثم انها على التوحيد والمعاد والرسالة وذلك أعظم الامور جلالة فهو أجدر ما يقسم عليه ، هل نفس أحد أشرف من أن يخاطر بها لهذه الشهادة أم يخاف أحد على دينه لخوف الكذب فيها ، اذا لا دين له . أم هو يستحى من اشهد الله تعالى على هذه الامور ثم قد شهد به الله والملائكة والعالمون فالقسم عليه محمول على حقيقة معنى الشهادة التى تبلغها الانبياء صراحة فان النبي فى عموم تبليغه يقول ان الله تعالى أرسله بعلمه ويشهد على صدقه وهو يلوذ به ويعتمد عليه ويتخذة وكىلا على ما يقول وهذه المعانى هى التى تفهم من القسم بالله كما مر فى الفصل العاشر فأى حرج ان ذكرها بأسلوب القسم . ولا يخفى أن القسم اذا كان من الله بخلقه وكلماته فلا مظنة فيه للشرك ولا معنى له الا الشهادة الخالية عن معنى

التعظيم . وجملة الكلام أف الاعتراض على أقسام القرآن أو على أقسام الأنبياء والصلحاء الذين أظهروا بأقسامهم توكلهم على الله وفرارهم إليه واستعانتهم به وكذلك النهي المطلق عن اليقين لم ينشأ الا من قلة التدبر والتمييز بين الامور . هذا وأما ما روى عن المسيح من نهيه عن الحلف مطلقاً فلملة خاصة ونيهاً فيما يتلو :

ايضاح ما تجد في الانجيل

من النهي المطلق عن الحلف

(١٩) قد علمنا وقد اعترف علماء المسيحيين بأن أصل الانجيل مفقود وانما في أيدينا تراجم اختلط فيها أقوال المسيح وأقوال الرواة ، والروايات مختلفة ربما يضاف بعضها بعضاً مع اضطراب المتن وعدم السند فضلاً عن الاتصال والصحة فاللتفات إليها والتعرض لها ليس الا على تقدير التسليم وعلى سبيل التنزل فاعلم أن النهي عن الحلف جاء في الخطبة المعروفة بالخطبة الجبلية المذكورة في الانجيل المنسوب الى متى ببعض البسط ولا توجد في مرقس ولا في يوحنا ما خلا بعض الفقرات منها وجاءت في لوقا مختصرة ولاختصاره اخترته ماخذاً لاقتباسي ، فان نظرت في هذه الخطبة وتأملت آياتها ومواقعها تبين لك أنه عليه السلام لم يخاطب بها الجمهور ولم يجعلها شريعة عوض التوراة بل خص بها تلاميذه وأتباعه لمصلحة عظيمة كما ستعلمها . أما الدليل على التخصيص فمن وجوه :

الأول : تصريحه عليه السلام بذلك فان هذه الخطبة في متى مسبوقة متصلة بقوله « فلما جلس تقدم اليه تلاميذه ففتح فاه وعلمهم قائلاً » وكذلك رواية لوقا تذكر أنه أحيى الليل بالصلاة ثم اتته دعا تلاميذه واختار منهم اثني عشر وبعد ذلك تقول « ورفع عينيه الى تلاميذه وقال » ثم بدأ الخطبة بقوله « طوبأ كم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله ، طوبأ كم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون طوبأ كم اذا أبغضكم الناس واذا أفرزوك وعيروكم وأخرجوا اسمكم كشريير ولكن ويل لكم أيها الاغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم ، ويل لكم أيها الشباعي لأنكم ستجوعون ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون » والثاني أن في هذه الخطبة أحكاماً لا تليق الا بالمساكين والفقراء فانه عليه السلام كما نهى فيها عن الحلف نهى عن الكثر والاهتمام باليمين وحماية النفس عن الظلم وبالغ في ذلك حتى قال « من ضرب على خدك فاعرض له الآخر أيضاً . ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً . وكل من سألك فأعطه ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه »

والثالث : ان في هذه الوصايا حسب ظاهرها نسخاً للتوراة والمسيح يتحاشى عنه فقال على سبيل دفع دخل مقدر قبل ذكر الوصايا « لاتظنوا أنني جئت لانقض الناموس (التوراة) أو الأنبياء ، ما جئت لانقض بل لا اكمل » (متى) ثم دفع دخلاً مقدراً آخر وهو أنه لا كمال في ترك الدنيا بأسرها فبين لهم أن هذا كمال اضافي وهو التطهر عن الذنوب بالفرار عن الامتحان وكان ذلك سنته تعليمياً

للذين عجزوا عن كمال أ كمال فقال « ليس التلميذ أفضل من معلمه بل كل من صار كاملاً يكون مثل معلمه » (لوقا) والمبتدعون لم يرضوا بأن تكون سنته كمالاً إضافياً فزادوا في روايته متى « فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السماوات كامل » وفى رواية لوقا عوض هذه الجملة « فكونوا رحماء كما أنتم أباكم أيضاً رحيم » هيهات هيهات هل يساوى العبد ربه ولكن الحق غالب يبقى على رغم معانديه ويطمس على عيونهم فانظر الى تصريحه بما ينفي شائبة الشرك ويبين أن كماله كمال إضافي مما يختص بالفقراء كما جاء فى متى ص ١٩ عدد ١٦ « واذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية ١٧ فقال له : لماذا تدعوني صالحاً ليس أحد صالحاً الا واحد وهو الله ولكن ان أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا ١٨ فقال له : أية الوصايا ؟ فقال يسوع : لا تقتل لا تزنى لا تسهرق لا تشهد بالزور ١٩ أكرم أباك وأمك وأحب قريبك كنفسك ٢٠ قال له الشاب : هذه كلها حفظتها منذ حدثتى فاذا يعوزنى بعد ؟ ٢١ قال له يسوع : ان أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى ٢٢ فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة ٢٣ فقال يسوع لتلاميذه الحق أقول لكم انه يعسر أن يدخل غنى الى ملكوت السماوات ٢٤ وأقول لكم أيضاً ان مرور رجل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله » قبين للسائل أن كماله فى اتباعه والتجرد عن أسباب التمدن، والظاهر أن هذا ليس بكمال الكاملين ألا ترى أن

ابراهيم وداود وسليمان ويوسف عليهم السلام كانوا ذوى الثروة والكمال
فى الدين معاً هل يقال انهم لم يدخلوا ملكوت الله . فيما قلنا تروى شبهة
نقض الناموس وترفع المخالفة بين التوراة والانجيل

والرابع : ان هذه الوصايا ان اريد بها العموم والاطلاق تكون مخالفة
لسنة أنعم الهدى كابراهيم وداود وغيرها فانهم قاتلوا وانتصروا وجمعوا الوفير
وأنفقوه فى المواقع المحموده ولم يكونوا عيالاً على الناس . ولدفع هذا الاعتراض
زادوا فى رواية متى ما يحرف الكلام عن معناه فقال « طوبى للمساكين
بالروح » وكذلك « طوبى للجوع والعطاش الى البر لأنهم يشبعون »
وهذا لا يبدل باقى الكلام الذى فيه الخطاب الى الفقراء والمساكين من
جهة المال لا من جهة الروح وانما حرفوه لأنهم لم يفهموا تأويله وسيأتى
عن قريب فتبين من غير شك أن هذه الأحكام مختصة بامة قد خلقت
وقضت وطرها وليست بشريعة كاملة يترقى بها الملائمة الى ذروة
الكمال فى التمدن وتهذيب النفس وهى شريعة الاسلام لما فيه من اسلام النفس
والمال لله تعالى أولاً ثم القيام بهما فى طاعة الرب كما قال تعالى « ان الله
اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » الآية وذلك مبسوط فى موضعه
فبعد هذا التخصيص لا دليل على نهيهِ عن اليمين مطلقاً وقد علمنا عقلاً
ونقلاً جوازها والحاجة اليها ونحن معشر المسلمين نوقر الأنبياء أجمعين
فلا نأول كلامهم الى ما يخالف العقل أو يحط الاخلاق وهذا يتبين كل
التبين مما سنذكر فى الفصل الآتى من المصلحة العظيمة التى لأجلها
خصهم بهذه الوصايا وانما نذكرها بغاية الإيجاز لأنها من مسائل بسطها
يخرجنا عن موضوع هذا الكتاب وهى مبسطة فى موضعها

الحكمة في تخصيص هذه الوصايا بالتباعد

(٢٠) المسيحيون لا حاجة لهم الى تطبيق النقل بالعقل فانهم زعموا أن الدين وراء العقل ولكن فيهم رجالا متفلسفين سعوا في حماية الدين عن شين كل ما يشتمز عنه العقل وهم مع ذلك بل لذلك عند أئمتهم وعامتهم من الملاحدة ومنهم اسبنوز المتفلسف الماهر بالعبرانية . فقبل أن نبين لك ما هو التأويل عندى نورد رأى هذا المتفلسف فى أمر هذه الوصايا لتعلم أنه يوافقنا فى جعلها مخصوصة لامة وحالة ولتعلم الفرق بين أهل العقول من طائفتى المسيحيين والمسلمين وتعلم أن تأويلنا مع ظهور حجته أكبر تعظيما للشريعة وصاحبها . زعم اسبنوز أن المسيح عليه السلام انما أمر أتباعه بما حكام فيها التذلل والخضوع للظالمين لانهم كانوا حينئذ مقهورين تحت سلطة الجبائير فأمروهم بأن لا تقاوموا الشر وتعرضوا الحدود للظمة وأمثالها لا لشرافة أو حسن أو تدين فيها بل لكونها أصلح بحالهم : فهذا الرجل مع علمه وخوضه فى كتب الأنبياء وأحوالهم أقرّ بكون هذه الوصايا مخصوصة ولكنه لم يهتد الى علة هذا التخصيص فلئن راعى جانب العقل فقد أضاع جانب الشريعة الالهية والمسيح وحواريه . وأما نحن فنقول ان من قرأ نسخ الانجيل هذه بالتأمل لا يخفى عليه أن المسيح عليه السلام انما جاء مبشراً بقرب ملكوت الله الظاهر الذى كان عبارة عن سلطة دينية وقد كان أعطاه الله اليهود وضيعوه ثم دارت عليهم الدوائر وكانوا ينتظرونه مرة أخرى لوعد الله لهم فبشرهم المسيح بقربه

وعرفه لهم بأمثال كثيرة تطابق مطابقة واضحة نبوة خاتم النبيين ولما لم يؤمن به جمهور قومه وآيسه علمهم لقساوة قلوبهم وتعبدتهم لخارفة الدنيا اصطفى من عامتهم البسطاء شرذمة قليلة لم يغلبهم الترف والحرص لكيلا يعسر عليهم الدخول في ملكوت الله اذا ظهر وحينئذ يكملون بالشرعية الكاملة فامرهم بوصاياا تبقيهم على حالة الفقر والمسكنة ليبقوا على طهارة القلب والتقوى والصبر ليتوب الله عليهم حسب سنته ووعدده كما هو مبسوط في موضعه. وانما اخترنا هذا التأويل لأنه يجعل قول المسيح من أعظم البشرى ونبوة كبرى ولا يخالف العقل ولا النقل وذلك بأنه انطبق على أحوال المسيحيين ووقع عليهم كل ما أخبر عنه ، فان طائفة من أمتة آثرت الفقر ونبتت المال وطائفة آثرت الدنيا وعيروا الأولين بتسميتهم بالفقراء وطردهم ، كما بشرهم المسيح في أول هذه الخطبة ، ولم يكن ذنبهم الا أنهم أعطوا أموالهم في سبيل الله وألزموا على أنفسهم الفقر ولم يتركوا التوراة وحرموا الخنزير وأوجبوا الختان ولم يقولوا بالوهية المسيح ولم يقبلوا الا الاتجيل العبراني الذي ضيعه الآخرون وشنعوا على بالوس الذي بدل النصرانية وخالف الحواريين وادعى بأنه تعلم من المسيح في الرؤيا فلا حاجة له الى اتباع تلاميذه . فلما جاء الملكوت المبشر على يد خاتم النبيين دخله كثيرون من هؤلاء الفقراء وخالفه الأغنياء لتكبرون وعلى ما قلنا شهادات في التوراة والانجيل والقرآن وتاريخ المسيحيين ولكن بسط ذلك في كتابنا ملكوت الله وغيره فانما الكلام هاهنا جر بنا اضطراراً فلم يمكننا الصفح عنه بالكلية ولا البسط له بالتام

فانه موكول الى موضعه الجدير به وجملة القول أن نهى المسيح عن المين مطلقاً كان مخصوصاً بالذين كاتوا على سنته ولا ننكر ذلك فان امرأاً تسأل عن التمدن بالكلية وجمع جراميزه للمسكوت عظيم ينتظره ، يُشتم ويلطم ويظلم فلا ينتقم فهو لا يعامل ولا يجادل فلا يقول فأى أمر يدعو الى الحلف انما يكون قوله لا لا ونعم نعم . ثم نقول ان نهيه عن القسم كان أيضاً مخصوصاً من جهة المقسم عليه كما يظهر من موقع كلامه فاني لأرى انه عليه السلام نهى عن القسم على الحقائق الدينية لأنه عليه السلام نفسه حسب رواية يوحنا أشهد الله تعالى على صدق رسالته وهل القسم الا الاشهاد . وكذلك ترى في القرآن أقسام صالحي النصارى المرسلين لتبليغ الحق حيث جاء في سورة يس « قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون * وما علينا الا البلاغ المبين » فقولهم « ربنا يعلم » قسم كما مر وهو ظاهر هذا وفي ما مر من المصنول السابقة كفاية ان شاء الله تعالى لمن أراد جواب الشبهات فان فيما ذكرنا توفيقاً بين النقل والعقل وتصديقاً بالتوراة والانجيل والقرآن . ومهما كان من اختلاف فانما هو من جهة الاتمام والتفصيل واقامة الوسط بين الافراط والتفريط ورعاية التميز بين دقائق الأحكام عند تشابك النفع والضرر . وقد رأيت كيف راعى القرآن هذا التميز في حكم القسم ، وليس هذا موضع تفصيله في سائر أحكام هذه الشريعة الكاملة ، ولكن نذكر الآن ما لم نذكر من لحاظ الفرق في استعمال كلمات القسم حسب مواقعها مما يحسن وما لا يحسن منه اتماماً لما ذكرنا من معاني المقسم وتنبيهها على طرف آخر من بلاغة القرآن وحثاً على بذل الجهد في معرفة اللغة العربية فان بعض الجهل بها يضر بدين المرء

الفرق في كلمات القسم

حسب مواقعها فما يحسن ومما لا يحسن

(٢١) قد تبين عند علماء اللسان أن في الألفاظ المترادفة فروقا ولكل منها معنى خاصا وحداً محدوداً . وقد وجد علماء العربية في القرآن من هذه الفروق ما لا ينتبه له الا الناقد المبتع كاستعماله الرياح في موضع النفع والريح في موقع الضرر ، وكاستعماله الأمطار في موقع العذاب ، فمن هذا الباب مراعاة الفرق بين كلمات القسم بحيث يشير بذلك الى بعض خصائصها . وقد ذكرنا في الفصل الثامن عشر أن القسم ربما يهين قدر المرء ويذهب بشرفه فانظر كيف ينبه القرآن على هذا الأمر باستعماله كلمة الحلف فيمن يصغر نفسه بيمينه ويلح حيث لا يلح شريف ، **فقدى** في سورة البراءة ذكر القسم من المنافقين في سبعة مواضع فلم يأت به الا بكلمة الحلف لدنا:تهم وكذبهم في اعتذارهم وما جاءت هذه الكلمة في سائر القرآن الا حيث يشنع لما فيها من قلة المبالاة بشرف النفس والنزوع الى ما يلقى فيها في الكذب والالحاح ولذلك لما أراد النابغة الغلو في تضرعه عند النعمان بن المنذر قال :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
فأفصح عن غاية الاستكاثرة ، وهذا أبلغ بينة في اظهار الخشية والتذلل وهو أبلغ الشعراء عند الرهبة ولذلك قيل « أشعرهم امرؤ القيس اذا ركب ، والاعشى اذا طرب ، وعنترة اذا غضب ، والنابغة اذا رهب »

فان صحت هذه الخصوصية عندك عرفت قدرها في الدين ، فانك اذا تجنبت استعمال كلمة الحلف لله تعالى كما ترى المفسرين منا والمترجمين للتوراة لا يبالون بقولهم « حلف الله بكذا » ولخصائص باقي كلمات القسم نحو لك الى الفصل السابع لكي تستنبطها مما ذكرنا من معانيها فان موضوع الكلام هاهنا أن القسم لما كان أحياناً مذموماً ذمه القرآن حسب موضعه ودل عليه بكلمة خاصة، وهذا من تمام التشريع وكمال التبيين كما قال تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين »

خاتمة الكتاب

(٢٢) كل ما ذكرت في الفصول السابقة ليس الا ما يتعلق بمسألة القسم من جهة كلية ، وأما تأويل آيات القسم على تفصيلها فذكر في مواضعها من التفسير غير أني في طي الفصول وغضون الأمثلة دلت على ملاك أمرها ونسبت نهجها . ثم لم يهمني في هذا الكتاب الا طرف خاص من بحث القسم وهو الذي اشتبهه على المعترض ومع ذلك ربما قادتني علائق الكلام الى أمور تقتضى بسطاً وتفصيلاً فجلت جولة الى نسحة من القول حتى اذا سطع الحق واجابت الشبهة اقصرت عن استقصاء البحث لكيلا اخرج عن الموضوع فصار الكتاب جامعاً بين خطتين الایجاز والاطاب واقعاً بين نقطتين الاجمال والتفصيل . ويوشك الناظر المستعجل يتهمنى مرة بالحصر وأخرى بالهذر ، فليعلم أنه قد اضطرني الى هذا الوضع شكل المسألة وصورتها الخاصة . ومع ذلك ما ابرئ نفسي عن الزلة والعثرة ، وفي ذلك تمام المَعذرة . وأسأل الله العفو والمغفرة ، فانه أرحم الراحمين

﴿ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ﴾

فهرس

صفحة

- (١) ديباجة الكتاب ٣
- (٢) ذكر الشبهات الثلاث على أقسام القرآن ٤
- (٣) طريق الامام الرازي في الجواب عن هذه الشبهات ٥
- (٤) طريق العلامة ابن القيم رحمه الله في تأويل أقسام القرآن لدفع الشبهات ١٠
- (٥) طريق هذا الكتاب في الجواب على سبيل الاجمال ١٣
- (٦) تاريخ القسم وحاجة الناس اليه وطرقه المختلفة للدلالة على حقيقة معناه في أول الامر ١٤
- (٧) بيان أن القسم لا يلزمه المقسم به بايضاح معاني كلمات كثر استعمالها للقسم ١٩
- (٨) بيان أصل معنى القسم اذا كان فيه مقسم به ٢٢
- (٩) القسم على وجه الاكرام للمقسم به والمتكلم والمحاطب ٢٤
- (١٠) القسم على وجه التقديس للمقسم به ٢٦
- (١١) القسم على وجه الاستدلال بالمقسم به ٣٢
- (١٢) القسم على وجه الاستدلال في كلام ديماستنيس أعظم بلغاء يونان ٣٠
- (١٣) القسم على وجه الاستدلال في كلام بوليوس الشاعر اليوناني ٣٨
- (١٤) شرح دلالات القسم الاستدلالي ٣٩
- (١٥) الأدلة المأخوذة من نفس القرآن على ما فيه من الأقسام الاستدلالية ٤١
- (١٦) بعض أسباب خفاء الوجه الصحيح في تأويل أقسام القرآن ٤٥
- (١٧) ذكر بعض ما في القسم من أبواب البلاغة ولطائفها ٤٨
- (١٨) الفرق بين ما يحسن وما لا يحسن من القسم ٥٦
- (١٩) ايضاح ما نجد في الانجيل من النهي المطلق عن الحلف ٥٨
- (٢٠) الحكمة في تخصيص هذه الوصايا باتباعه ٦٢
- (٢١) الفرق في كلمات القسم حسب مواقعها مما يحسن ومما لا يحسن ٦٥
- (٢٢) خاتمة الكتاب ٦٦

أَبُو الْعَلَاءِ وَمَا إِلَيْهِ

كتاب حافل بتاريخ حكيم الشعراء وأخباره
جامع للباحث الدقيقة ، مخرجاته واثاره . منه على اوهام الشرق والعرب في فهم رموزه وامراره

تأليف

عبد العزيز الميمنى الرجاكوتى الأثرى

الاستاذ بجامعة على كره الاسلامية في الهند

— (١٣٥٠) —

عنيت بنشر

دار المصنفين

في ٣٢٠ صفحة كبيرة * يليه رسالة الملائكة للمعري مشروحة ومحقة في ٣٠ صفحة
وبعدهما فائت شعر أبي العلاء في ١٥ صفحة * ثمن الجميع ٣٠ قرشاً

يطلب من

المطبعة الشافعية - ومكتبتها

مرحمة صاحب هذه الرسالة

١
المعلم عبد الحميد الفراهي

رحمه الله

بقلم صديقه العلامة الجليل

السيد سليمان النوروي

رئيس جمعية دار المصنفين

و.ش. حلة (معارف) :

(ب)

ترجمة صاحب هذه الرسالة

الدنيا دار العجائب ، ومن أعجب عجائبها وقوع ما كنت تحذر منه ،
وحدوث ما لم يخطر ببالك

بعثنا هذه الرسالة للطبع ، وصاحبها حتى يرزق . فلم يمض شهر حتى
فوجئنا بموته ، وفُجعنا بانخرام حياته ، وكان رحمه الله آية من آيات الله في
حدة الذهن ، وكثرة الفضل ، وسعة العلم ، ودماثة الخلق ، وسداد الرأي
والزهد في الدنيا ، والرغبة في طلب مرضاة الله

هو حميد الدين أبو أحمد عبد الحميد الانصارى الفراهي

وُلد رحمه الله سنة ١٢٨٠هـ في قرية فريها من قرى مديرية أعظم كره
في الترميز بالهند . وكان ابن خال علامة الشرق ومؤرخ الاسلام
الشيخ شبلى النعماني ، تغمده الله برحمته

واشتغل بعد ما ترعرع في طلب العلم ، فحفظ القرآن ، وقرأ
كدأب أبناء العائلات الشريفة في الهند اللغة الفارسية ، وبرع فيها ،
فنسج قصيدة فارسية صعبة الرديف باري فيها شاعر الفارسية الطائر
الصيت خاقاني الشرواني ، فأثى فيها بما أعجب الشعراء

واشتغل بعد ذلك بطلب العربية ، فاستظل بعطف أخيه الشيخ
شبلى النعماني ، وهو كان أكبر منه بست سنين ، فاخذ منه العلوم العربية
كلها من صرفها ونحوها ، ولغتها وأدبها ، ومنطقها وفلسفتها . ثم سافر
الى لكتو مدينة علم الولايات المتحدة ، وجلس في حلقة الفقيه المحدث

(ج)

الامام الشيخ أبي الحسنات عبد الحى السكنوى محاسب التعاليق المشهورة ثم ارتحل الى لاهور وأخذ الأدب العربى من إمام اللغة العربية وشيخها المفلق فى ذلك العصر الشيخ الأديب فيض الحسن السهارنفورى شارح الحماسة واستاذ اللغة العربية فى كلية العلوم الشرقية بـلاهور ، فبرع فى الآداب العربية وفاق أقرانه فى الشعر والانشاء ، هراً دواوين الجاهلية كلها وحلّ عقد معضلاتها ، وقصص شواردها . فكان يقرض القصائد على منوال الجاهليين ويكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصحائهم ثم عرّج على اللغة الانكليزية ، وهو ابن عشرين سنة ؛ ودخل فى كلية على گره الاسلامية ونال بعد سنين شهادة بـع من جامعة الله أباد وامتاز فى الفلسفة الحديثة أخذها من الاستاذ الدكتور توما أرلنڈ الانكليزى الاستاذ بكلية على گره الاسلامية يومئذ ، فصار يجمع المهرين وبينهما برزخ لا يبغيانه . كان عالماً بالعلوم العربية والدينية وفاضلاً فى العلوم العصرية والانكليزية ، فاجتمعت فيه خصال الجنسين المتقين من العلماء الراسخين ، والمتنوّرين من الفضلاء الكاملين

وبعد ما قضى وطره من طلب العلم ، واستقى من حياضه ، ورتع من رياضه . نُصب معلماً للعلوم العربية بمدرسة الاسلام بـكراشى عاصمة السند . فدرّس فيها سنين ، وكتب وألف ، وقرض وأنشد

ثم انقطع الى تدبّر القرآن ودرسه ، والنظر فيه من كل جهة ، وجمع علومه من كل مكان ، فقضى فيه أكثر عمره ، ومات وهو مكبٌ على أخذ ما فات من العلماء ، ولف ما نشره ولمّا اشتتوه ، وتحقيق ما

بحقوقه . فكان لسانه ينبع علماً بالقرآن وصدره يتدفق بحثاً عن مشكلاته وقلمه يحرق كشفاً عن معضلاته . وهو كان يعتقد أن القرآن مرتب ببيان ومنسقة النظام آياته . وكل ما تقدم وتأخر من سورة وآيه بنى على الحكمة والبلاغة ورعاية مقتضى الكلام . فلو قدم ما آخر وأخر ما قدم لبطل النظام ، وفستد بلاغته الكلام . وكان يرى أن القرآن يفسر بعضه بعضاً فأعرض عن القصص وما أتى به المفسرون من الزخارف والمعائب . هذا كان دأبه في تفسيره الذي سماه نظام الفرقان وتفسير القرآن بالقرآن وكان حسن النظر في كتب اليهود والنصارى ، فاستمتع بها في مباحثه

ولما سافر الحاكم العام في الهند اللورد كرز في رحلته السياسية سنة ١٩٠٠ م إلى الشواطئ الغربية والخليج الفارسي ليجتمع بشيوخ العرب وأمراءهم عين الشيخ حميد الدين ترجماناً فرافقه في السفر ، وانتخب بعد ما قفل من رحلته معلماً للغة العربية بكلية علي . كره الإسلامية ؛ وكان يومئذ استاذ اللغة العربية بها المستشرق الألماني الشهير يوسف هارويز فالمستشرق استكمل منه العربية ، وهو قرأ عليه العبرانية . وبعد سنين نصب استاذاً للغة العربية بجامعة الله آباد ، وبقي هناك أعواماً حتى انتقل منها إلى حيدر آباد الدكن رئيساً لمدرسة دار العلوم العربية الأميرية النظامية التي كانت تخرج قضاة البلاد وولاتها

وهو الذي ارتأى تأسيس جامعة أردوية تدرس العلوم الدينية بالعربية والعلوم المصرية بالاردوية ؛ وبذل جهده في تحقيق هذا الأمل وإنجاز هذا العمل حتى نال القبول من مالكي أزمّة الأمور والجمهور .

وصادق عليه دولة الأمير الاعظم النواب نظام الملك آصف جاه الثامن
عثمان على خان خاند الله ملكه ودولته . وسميت بالجامعة العثمانية ، وهي
يومئذ من أحدث جامعات العالم سناً ولكن أعجبها نظاماً

ثم استقال من خدمته ولزم بيته ، وانقطع الى العلم . وكان قد أسس
في قرب من قريته مدرسة عربية دينية سميت « مدرسة الإصلاح »
فكان ينظر في شئونها ويجريها على أمثل طريق اخترعه وأحسن أسلوب
أبدعه . ومن جل مقاصدها تحسين طريقة تعليم العربية ، وإيجاز قائمة
دروسها المتعبة العقيمة ، والغناء العلوم البالية القديمة ، والعكوف على طلب
علوم القرآن ، والبحث عن معانيه ونظمه ، وأحكامه وحكمه

وكان رئيساً للجنة المديرين « لدار المصنفين » التي أسست تذكاراً
لأخيه الشيخ شبلى النعماني فكان هو أحد مؤسسيها . وكان يبذل أوقاته
فراغه في التأليف والتدوين والنظر في القرآن ومعانيه ولقاها دروسه على
تلامذته الملتفين حوله . فسمح خاطره المتدفق بما بخل به القدماء من
علومه ، وفرق على العفاة ما لم يجمعه الاوائل في صحفهم

كان رحمه الله منقطعاً الى هذا البر من العمل ، حتى أتاه الأجل في
التاسع عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ (الحادى عشر من نوفمبر سنة
١٩٣٠ م) مات غريباً في مدينة متهورا كعبة الوثنيين في الهند . كان
رحل اليها عليلاً يستشير طبيباً نطاسياً من أبناء بلده موظفاً فيها فلم ينجمه
الدواء ، ولم يرزق الشفاء ، وأنهكته العلة التي سدكت به ، وخابت العملية
التي قام بها الطبيب وهو محتسب صبراً ، ومطمئن شكراً . يجود بنفسه وهو يتلو

(و)

القرآن ، ويشكر الرحمن . حتى أسكت الحمام ، ناظم الكلام ، الى يوم
القيام . وكل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . صدق
قول القائل : عاش حميداً ومات شهيداً

خالف من آثار خاطره ذخيرة لا تفتى ؛ وعلوما لا تبلى . وأكثرها
بالعربية

فما طبع من كتبه :

(١) أسباق النحو جزآن بالأردوية (٢) وديوانه الفارسي (٣)
وخر دنامه كتاب نظم فيه حكمة سيدنا سليمان بالفارسية القحة لانشوبها
كلمة عربية ، (٤) مقالة في الشفاعة والكفارة بالانكليزية ردها على بعض
علماء النصارى . والبقية الآتية كلها بالعربية ، (٥) الراى الصحيح فى من
هو الذبيح ، (٦) وتفسير سور من القرآن ، وهو جزء من أجزاء
تفسيره نظام الفرقان (٧) وامعان فى أقسام القرآن

ومما لم يطبع من كتبه :

(٨) بقية تفسير سور من القرآن (ولم يكمله ، وذلك ما خسرت به
الامة المحمدية) (٩) جمهرة البلاغة (اصل فيها أصولها ليهدى الناس الى فهم
عجاز القرآن ، ورد فيها على أصول ريطوريقا لارسطو الذى أضل
المتأخرين من مصنفى كتب البلاغة ، حتى الشيخ عبد القاهر الجرجاني
رحمه الله) (١٠) فلسفة البلاغة (١١) سليقة العروض (١٢) دلائل الى النحو
الجديد والمعانى والعروض والبلاغة (١٣) ملكوت الله (وهو تحقيق
نواميس الله وسننه فى خلقه وتديره ومجازاته) ، (١٤) الرائع فى أصول

(ز)

الشرائع ، (١٥) أساليب القرآن ، (١٦) إحكام الاصول بأحكام الرسول
(وهو تتبع طرق الاجتهاد النبوى) ، (١٧) القائد الى عيون العقائد
(وهو تحقيق ماجاء به القرآن من الدين لايشوبه بدعة المبتدعين وفتنة
المتكلمين) (١٨) كتاب العقل وما فوق العقل (تحقيق العلوم التى تدركها
العقول والتى فوق ادراكها) ، (١٩) الاكليل الى شرح الانجيل ،
(تصحيح ما نطق به الرسول المسيح ، وتفسير ما أوله المبطلون من أهل
الصليب) (٢٠) أسباب النزول (نزول القرآن) (٢١) تاريخ القرآن (تاريخ
جمعه وتأليفه . وهو كان يعتقد بالدلة القرآنية الصحيحة أن القرآن كان
مؤلفا على عهد النبي ﷺ) (٢٢) أو صاف القرآن (شرح ما وصف به
القرآن نفسه ، من الحكمة والذكر والنور والابانة وغيرها من النعوت ،
(٢٣) فقه القرآن (٢٤) حجج القرآن (٢٥) كتاب الرسوخ فى معرفة
الناسخ والمنسوخ (٢٦) رسالة فى اصلاح الناس (٢٧) كتاب أصول
التاويل (٢٨) مفردات القرآن (تحقيق معانى كلمات القرآن بالقرآن)
(٢٩) دلائل النظام ' هو ايضاح ماأراد به من نظام القرآن واستدل بالآثار
على صحة ماأراد ، وأقام عليه الحجج ، (٣٠) الا زمان والاديان ، (ان الدين
لايتقلب بتقلب الازمان ، والدين كله واحد) (٣١) كتاب الحكمة
(شرح معنى الحكمة التى فى القرآن ، والتى أوتى النبيون ، وما كانوا
يعلمون الناس منها) (٣٢) القسطاس (رسالة فى علم جديد وهو منطق
العمل وميزان الارادات وأساس الحكمة العملية) (٣٣) ديوانه العربى
ونقته بديوان ابي أحمد الانصارى

(ح)

من يقرأ أسماء هذه الكتب ، يقضى منها العجب ويؤمن بما أُوتى
صاحبها من سعة العلم ، ووضحة النظر ، وكثرة الفضل ، وسلامة الذوق ،
وتوقد الذهن ، والتأمل في القرآن ، وفهم أصوله ومعانيه . وتناول
أقاصيه وأدانيه

رحمه الله وأحكمه ، ونفعنا بعلومه وكتبه . ويسر لنا طبعها ونشرها
وعممّ المستفيدين خيرها وبرها

العبد السكيب المحزون
سليمان التروى

دار المصنفين
بمدينة اعظم كره بالهند
٢٧ شعبان سنة ١٣٤٩



